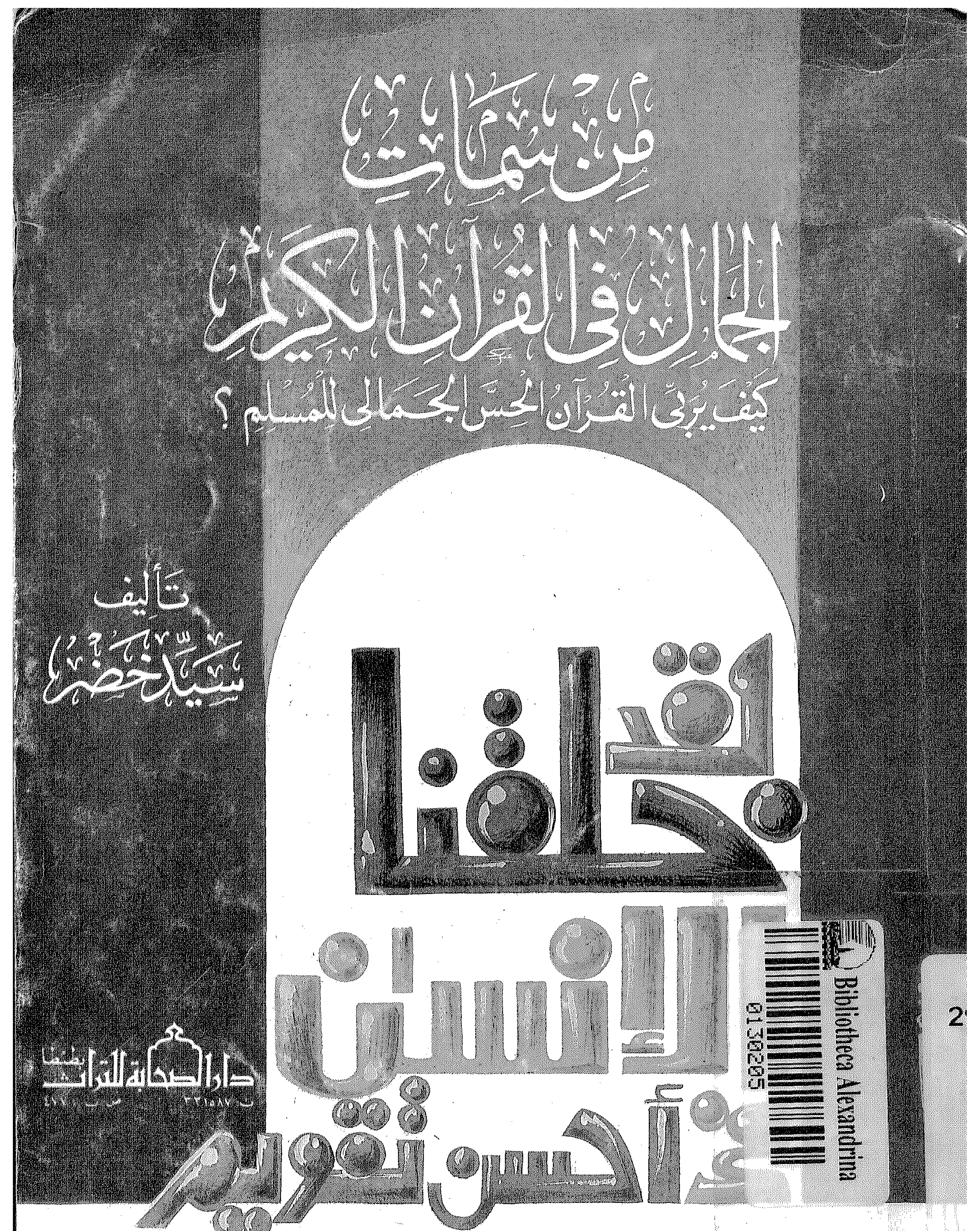

من سمات
الجمال في القرآن الكريم
كيف يربي القرآن الحس الجمالي للمسلم ؟
تأليف
سيد خضر
لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم
دار الصحابة للتراث بطنطا
Bibliotheca Alexandrina
0130205
مراجعة / قسم التحقيق بالدار

من سمات الجمال في القرآن الكريم

كيف يربي القرآن الحس الجمالي للمسلم ؟

تأليف

سيد خضر

مراجعة

قسم التحقيق بالدار

دار الصحابة للتراث

بطنطا

للنشر . والتحقيق . والتوزيع

ت: ٣٣١٥٨٧ ـ ص.ب ٤٧٧

شارع المديرية

فاكس : ٠٤٠/٣٣٨٧٦٩

كتاب قدحوى درراً بغين الحسن ملحوظة

لهذا قلت تنبيهاً

دار الصحابة للتراث بطنطا

الطبعة الأولى ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م

المراسلات / دار الصحابة للتراث بطنطا
طنطا . ش المديرية - بجوار - محطة بنزين التعاون
ص ب / ٤٧٧ ت : ٣٣١٥٨٧

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه الأبرار ، وبعد ، فإن الباحث عن الجمال فى القرآن الكريم تقابله صعوبة مبدئية تتمثل فى ندرة المراجع التى يمكن أن تسعفه إذ يخطو فى بحثه خطواته الأولى ، حيث ندر أن نجد أبحاثاً متخصصة فى الجمال فى القرآن بشكل خاص ، أو فى الإسلام بشكل عام ، وكان هذا سبباً دعانى إلى عمل هذه الرسالة وهى مقدمة أرجو أن تتلوها أعمال أخرى تبحث فى هذا الجانب من جوانب عظمة القرآن الكريم ، وهو جانب الجمال ، مظاهره وسماته ورؤية الإسلام له .

وإذ نأتى إلى القرآن الكريم نجد أننا يمكن أن نتوسع فى فهم الجمال فيه لدرجة أن نجعل القرآن كله وحدة جمالية تامة متنا سقة ، وهذا حق لا ريب فيه ؛ لأن القرآن كلام الله تعالى ليس غير ، ويمكن أن نختصر الأمر لنقصره على الآيات التى تحدثت عن الجمال صراحة ، فنجمعها ونحاول أن نحللها لنصدر عنها بمفهوم قرآنى للجمال ، وأنا ــ إن شاء الله ــ أتوسط فى هذا الأمر ، ومع إيمانى العميق بأن القرآن كله وحدة جمالية تامة متناسقة ، فلن أستطيع فى هذا المقام أن أحلل ذلك إلى عناصره ، لأنه أمر يطول ، ولن أقصر الأمر أيضاً على الآيات التى تحدثت صراحة عن الجمال ، وإنما سآخذ مايمكن تأويله دون اعتساف ليضاف إلى رصيد الجمال فى القرآن .

والجمال والحسن والزينة والزخرف صور متعددة لمعنى عام هو الجمال ، واستعمال القرآن للألوان أمر ذو خصوصية جمالية فريدة سوف نتبين معالمها ، هذا بالإضافة إلى (لوحات) قرآنية بديعة يبدو فيها جمال صنع البارى سبحانه ، سنحاول أن نقف عند بعضها ونحلله ، مع التقديم لهذا كله بالحديث عن وسائل إدراك الجمال ، تلك التى أنعم الله تعالى بها علينا .

وقد دفعنى إلى البحث فى هذا الموضوع انتشار مفاهيم للجمال على الصعيدين : الفكرى والعملى ، لا تمت إلى الإسلام بصلة ، بل هى مفاهيم وضعية انتشرتْ بفضل قوة أصحابها الإعلامية والاقتصادية ، ووجدت لها رواجاً فى بلادنا ـ مع الأسف ــ مع

أولئك الذين ينعقون مع كل ناعق ، ويتلقطون مظاهر السقوط والتحلل فى الحضارات الأخرى فينقلونها إلينا زاعمين أنها الحضارة والثقافة والجمال !!

وأنت تسمع عن (علم الجمال) وعن (الجمالية) فى الأدب والفن وضروب الثقافة الأخرى ، وتحاول أن تفهم ماذا يريد أصحابها ودعاتها ، فإذا كثير من أعمالهم خليط لا يمت بصلة إلى الجمال الحق الذى فطر الله الناس عليه .

وربما تكون قد سمعت أيضاً بمذهب (الفن للفن) الذى ورد إلينا فيما ورد ، وخلاصته أن يكون الفن من أجل الفن فقط ، أى أن كل مظاهر الفنون تكون غاية لذاتها فحسب ، وليس لقيم أخرى تربيها فى الإنسان لتأخذ بيده فى طريق مستقيم ، فالفن عند هؤلاء غاية وليس وسيلة .

ولقد تأخذك قدماك ـ مدفوعتين بدعاية عريضة ـ إلى معارض فنية ، يقال إنها قمة الفن ، وترى صوراً ولوحات ، فلا تكاد تحس فيها ذلك الجمال الذى تطلبه نفسك ، بل لعلك تجد فيها ما يناقض فطرة الإنسان ، وتجد لوحات لا تستطيع أن تحسّ أو تفهم ماذا يريد صاحبها بها ، ولذلك سرعان ما تنتشر هذه البدع ثم تموت ويقوم غيرها ....

ونعود إلى الجمال فى القرآن فنجد أنه جمال إلهى خالد ، يخاطب فطرة الإنسان السليمة فير بيها خير تربية ، ومقاييس القرآن للجمال هى المقاييس الخالدة التى لا تموت أبداً ، وهى إن توارت عن الحياة فليس لأنها ضعيفة ، وإنما لأن حاملى رايتها قليل .. قليل ، ولهذا يجب أن نفرق دائما بين الإسلام ـ أصولاً عليا ثابتة وخالدة ـ وبين المسلمين كحالات متعددة ، تتراوح بين الصعود ـ ارتباطاً بالقرآن ـ وبين الهبوط ـ بُعداً عنه !

ولا يغيب عن البال أيضاً مقاييس رسول الله ﷺ للجمال ، وهى مما فهمه من القرآن وهداه الله إليه ، وهى أيضاً حق واجب الاتباع ، لما لها من الخلود والعصمة ومناسبة الفطرة الإنسانية ،وكل ذلك لا يتوافر للمذاهب الوضعية التى تنتشر كالو باء ثم تموت سريعاً ، وسوف أفرد الجمال عند رسول الله ﷺ برسالة خاصة ، إن شاء الله . .لقد جعل الله تعالى الجمال أساس صنعه ، لأنه هو سبحانه جميل ، وقد روى عبد اللهبن مسعود أن النبى ﷺ قال : « لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر ، قال رجل : إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسنة ، قال ﷺ :

« إن الله جميل يحب الجمال ، الكبر بطر الحق وغمط الناس » (١) .

والحسن ـ وهو أخو الجمال ـ سمة مشتركة لكل ما خلق الله تعالى ﴿ **الذى أحسن كلَّ شىء خلقه** ﴾ (السجدة : ٧.)

والقرآن يربى الحس الجمالى للمسلم بصور متعددة ، تتسرب إلى النفس من خلال آياته ، بل يجدها المسلم دعوة صريحة هو مأمور بها ﴿ **انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون** ﴾ (الأنعام : ٩٩) ، وهى دعوة للنظر إلى الثمار وينعها ـ نضجها ـ وما فيها من جمال خلقه سبحانه الذى صنع ذلك من الماء والطين ، وهذا الإحساس الجمالى يدفع الفطرة السليمة إلى الإيمان بالله تعالى الواحد القادر ، ولذلك يأتى التعقيب فى نهاية الآية ﴿ **إن فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون** ﴾ ليدلنا بوضوح على أن الجمال فى القرآن وسيلة لاغاية لذاته ، وهذا فرق أساسى بين المنظور الإسلامى للجمال وبين الرؤى الوضعية .

والقرآن الكريم لا يقصر الجمال على شىء دون شىء من خلقه تعالى ، وإنما كل خلقه جميل حسن ، ويظهر فيه ذلك الأثر الإلهى ، ولتربية الإحساس الجمالى عند المسلم نرى القرآن يبدع فى وصف خلق الله تعالى ، بل ويحدثنا عن أشياء لم نرها بعد ، كوصف الجنة والنار ، أو مشاهد البعث والحساب ، فإذا بهذه الأشياء ـ لدقة الوصف ـ ظاهرة شاخصة أمام أبصارنا ، وإذا هى مفصلة حية متحركة كأننا نراها رأى العين .

وإذا كان الناس ـ مسلمهم وكافرهم ـ يتفقون على أن (الخضرة) بكل صورها تمثل أبرز مظاهر الجمال الطبيعى ، فإن وصف الجنة يفوق كل ما يعرفه الإنسان من صور الجمال فى هذه الدنيا ، فهنالك فى الجنة (٢) الأنهار ـ أساس الحياة ـ وهى هنالك من ماء وخمر ولبن وعسل ، وهنالك أنواع الأشجار والثمار مما لا يخطر على قلب

---

(١) حديث صحيح : أخرجه مسلم (٩١) وأبوداود (٤٠٩١) والترمذى (١٩٩٩) من حديث عبد الله بن مسعود رضى الله عنه مرفوعاً .

(٢) اشتق لفظ الجنة فى العربية من مادة (جنن) وأصلها (الستر) وفى لسان العرب « الجنة هى دار النعيم فى الآخرة ، من الاجتنان ، وهو الستر ، لتكاثف أشجارها وتظليلها بالتفاف أغصانها » اللسان ١/٧٠٥ ط المعارف .

بشر ، مضافاً إلى صور النعيم الأخرى ، وهى هنالك كثيرة كثيرة ، وفى مقابل الجنة ترى صور (النار) وما فيها من هول وبشاعة وعذاب ، ولاننسى أن أحد أسس التربية فى القرآن يقوم على الترغيب بالجنة والترهيب بالنار ، ليعرف الإنسان ماله إن أحسن وما عليه إن أساء .

والجمال فى القرآن إذن يتسرب إلى وجدان المؤمن به تسرباً يروى ظمأه إلى الجمال الحق فيربيه تربية إيمانية سليمة تلائم الفطرة التى فطره الله عليها ، وتمنعه من الانسياق وراء جماليات مزعومة لا خير فيها .

وأخيراً أسأل الله تعالى أن يوفقنى إلى إخراج هذه الرسالة خالصة لوجه الله تعالى ، وهو سبحانه الموفق .

سيد خضر

رمضان ١٤١٢هـ

مارس ١٩٩٢ م



الفصل الأول

وسائل إدراك الجمال

١- السمع

٢- البصر

٣- حاسة الشم

٤ - حاسة الذوق

٥ - حاسة اللمس

٦ - العقل

٧- القلب

وسائل إدراك الجمال

خلق الله تعالى الإنسان فأحسن خلقه ، وجعل له الوسائل التى تعينه على أداء مهمته التى خلقه من أجلها فى هذه الحياة وهى المهمة التى حددها الخالق سبحانه سلفاً يوم خلق الجن والإنس ، قال تعالى ﴿ **وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون** ﴾ (الذاريات ٥٦).

ومفهوم العبادة باختصار كل عمل صالح يقرب العبد من الله تعالى ، ويبعده عن معصيته ، شريطة أن تكون النية فيه خالصة لوجهه تعالى ، ومن أراد تحقيق العبادة على وجهها فله فى رسول الله ﷺ الأسوة الحسنة .

وهذه المهمة التكليفية ـ العبادة ـ تحتاج إلى وسائل لكى يؤدى الإنسان بها رسالته على الوجه المطلوب ، ولذا جعل الله له السمع والأبصار والأفئدة ، وحواس الشم والذوق واللمس ، والعقل والقلب ، كل أولئك ليعرف به ربه الواحد الأحد.

وهذه الوسائل نفسها هى أدوات لإدراك الجمال الحق فى هذه الحياة وصولاً بتذوق الجمال إلى كمال الإيمان بالله تعالى الذى يأمرنا أمراً صريحاً فى القرآن باستعمال هذه الوسائل لما خلقت له من التعرف على أسرار الخلق لمعرفة عظمة الخالق سبحانه ، وأنت لذلك تجد السمع والبصر واللمس والذوق والشم ، كل هذه الحواس تجمع الأصوات والصور والألوان والوقائع ... وترسلها إلى العقل الذى يفرز وينقى ويستحسن أو يستقبح ، ثم يرسل ذلك إلى القلب الذى يقبل أو يرفض حسب الموازين التى يضعها له صاحبه ، حقاً كانت تلك الموازين أم باطلاً ، وكل هذه العمليات تحدث فى توافق وانسجام تام ، بحيث يؤدى الجميع دوره بأمانة وإعجاز يدعو إلى التفكر والتدبر فى خلق الله تعالى .

وسوف أحدد فى هذه السطور ـ من خلال آيات القرآن ـ بعضاً من وظائف تلك الوسائل أو النعم الإلهية ، ودورها فى إدراك الحق ، وفى قبوله أو رفضه ، ودورها فى إدراك الجمال .

١ - السمع

هو نعمة من نعم الله تعالى على الإنسان لكى يستعملها فى سماع الحق - ﴿ **وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون** ﴾ (الأعراف : ٢٠٤) ، أو يستعمله الإنسان للإعراض عن الباطل ﴿ **و إذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه** ﴾ (القصص :٥٥) .

والسمع هو الخطوة الأولى للفهم وإدراك الحقيقة ، ولهذا حذّر الكفار - وما يزالون - بعضهم بعضاً من سماع القرآن ﴿ **وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والْغَوا فيه** ﴾ (فصلت :٢٦) ، ولهذا أيضاً أُمر المسلمون بالاستماع والإنصات للقرآن إذا قرئ عليهم ، كما فى آية الأعراف السابقة .

والإنسان مسؤول يوم القيامة عن هذه النعمة ، فيمَ استعملها ؟ وكيف ؟ ثم إنه محاسب على ذلك إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، قال تعالى ﴿ **إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولاً** ﴾ (الإسراء : ٣٦).

وتعطيل السمع عن أداء مهمته التى خلق لها جريمة تؤدى بصاحبها إلى الهلاك ، ولذا يَسِمّ القرآن المعرضين عن الله ورسوله بأنهم (صُمّ) مع أن آذانهم تسمع ، إذ لامرض فيها ، ولكن لأنهم لم يسمعوا الحق فهم صم ﴿ **ومنهم من يستمعون إليك ، أفأنت تُسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون ؟** ﴾ (يونس : ٤٢) .

وحاسة السمع إحدى وظائف الأذن التى هى آية ومعجزة فى الخلق والتكوين ، لذلك يمتن الله على عباده فى آيات كثيرة بأن خلق لهم السمع ليعينهم على أداء رسالتهم ، ومن ذلك :

- ﴿ **وهو الذى أنشأ لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ماتشكرون** ﴾ (المؤمنون / ٧٨) .

﴿ **وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة** ﴾ (الأحقاف / ٢٦)

ومما تقدم يتضح لنا أن للسمع مهمة تكليفية من قبل الخالق ، إن أتى بها الإنسان على وجهها فهو مثاب ، وإن قصر فهو معاقب .

٢ – البصر

وهو آية عظمى ونعمة كبرى من الله على الإنسان ، لذا ينبغى عليه استعماله فيما خلق له من معرفة الخلق وصولاً إلى معرفة الخالق ﴿ **وفى أنفسكم أفلا تبصرون** ﴾ (الذاريات : ٢١) .

وتعطيل هذه الحاسة عن أداء رسالتها يؤدى بصاحبها إلى الهلاك ﴿ **قل هل يستوى الأعمى والبصير** ﴾ (الرعد : ١٦) ، وعدم التساوى يؤدى بالأعمى – الذى لم يستعمل بصره فى الحق – إلى الهلاك والخسران .

والمؤمن مطالب بأن ينظر إلى ما خلق الله حوله ليرى ويعلم قدرة الخالق فيزداد إيمانًا بربه ، وثباتًا على الطريق الصعب – طريق الإيمان – فى هذه الدنيا ، قال تعالى ﴿ **الذى خلق سبع سماوات طباقًا ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت ، فارجع البصر هل ترى من فطور . ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير . ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجومًا للشياطين** ﴾ (الملك : ٣-٥) فهذه السماوات إحدى المعجزات فى خلق الله تعالى ، وعلم الإنسان لم يصل بعد إلى إدراك حقيقة هذه السماوات ، ولكن الإنسان عرف الأرض والشمس والقمر وبعض الكواكب ، وعرف المجرات وما فيها من نجوم لا تحصى ..... فماذا وجد ؟ لقد عرفنا فى كل ذلك الانسجام والتوافق الكامل ، حيث يسير كل شىء فى فلكه المرسوم له لا يحيد عنه ، فى تناسق كونى كامل بين كل مفردات الكون على رحابته !

ثم لننظر إلى أرضنا هذه الصغيرة التابعة للمجموعة الشمسية ، وهذه المجموعة تابعة لمجرة (درب التبان) وهذه بدورها منزوية فى طرف من أطراف الكون الرحيب الذى لا يعلم حدوده إلا خالقه سبحانه ! و هذه الأرض – على صغرها – يختارها الله تعالى من بين جميع ما خلق فى هذا الكون ، ويختصها بعناية كبرى ، وينعم عليها بالحياة ، وخلق فيها الإنسان وتفضل عليه بالرزق والهداية ، ونزل عليه كتباً وأرسل إليه رسلاً ، ثم إن هذا الإنسان – بعد هذه النعم الإلهية – يرفض منهج الله تعالى ، إلا من

عصم الله ، حيث تسجل على هذه البشرية شهادة رسول الله ﷺ وشكواه التى ما تزال عالية تدوى فى أرجاء الأرض ﴿ **وقال الرسول يا رب إن قومى اتخذوا هذا القرآن مهجوراً** ﴾ (الفرقان : ٣٠) وما تزال هذه الشكوى قائمة ضد هذه البشرية التى لم تحكم القرآن فى أمورها !!

ومن أجل القيمة الكبرى للبصر فى الهداية ، سمى الله تعالى الآيات الهادية نفسها التى أرسلها إلى عباده (بصائر) أى كأنها أضواء هادية تنير الطريق لمن يريد الهداية ﴿ **قد جاءكم بصائر من ربكم ، فمن أبصر فلنفسه ، ومن عمى فعليها ، وما أنا عليكم بحفيظ** ﴾ (الأنعام : ١٠٤) .

٣ ـ حاسة الشم

وهى من نعم الله تعالى ، وبها يميز الإنسان روائح الأشياء ، ويعرف بعضاً من طبائعها فهو يعرف الرائحة الطيبة من الخبيثة ، ولذا يأمرنا رسول الله (ﷺ) بالتطيب (١) وينهانا عن أكل الثوم والبصل قبيل الصلاة لما لهما من رائحة كريهة ، والقرآن يحدثنا فى مواضع ـ حديثاً غير مباشر ـ عن هذه النعمة ، وهذا موضع واحد منها ، نجد فيه النبى يعقوب عليه السلام يعرف عن طريق حاسة الشم قرب عودة ولده الحبيب الذى فقده صغيراً وهو يوسف عليه السلام ﴿ **ولما فصلت العير قال أبوهم إنى لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون** ﴾ (يوسف : ٩٤) ،إن يعقوب المحب الحزين يشم رائحة ولده من مسافة مئات الأميال ، منذ أن فصلت القوافل عائدة بالميرة من مصر ، حملتها إليه الرياح بفضل الله تعالى ، والإنسان على مستوى الحياة العادية يعرف قيمة هذه النعمة عليه ، ولذا فعليه أن يستعملها فى الحق وأن يحمد الله تعالى عليها .

٤ ـ حاسة الذوق .

والذوق حاسة يعرف بها الإنسان الطعم الطيب من الخبيث ، وبه يميز الجيد من الردىء من الطعام والشراب ، ونحن نجد الذى يمرض أياماً بمرض بسيط

(١) انظر رسالة « ترويح الاريب فى آداب وأحكام وأنواع الطيب » من إصدارات دار الصحابة

(كالأنفلونزا) مثلاً ، لا يستطيع أن يميز مذاق الطعام بدقة ، لما يصيب تلك المنطقة الحساسة من التعب ، واللسان هو عضو الذوق ، وهو عضو الكلام ،وكم له من خطر هذا العضو الصغير الكبير ! فبه تقال كلمة الإيمان ، وبه تقال كلمة الكفر ـ نعوذ بالله منها ــ وبحصائده يكب الناس على وجوههم فى النار .

ولفظ الذوق يرد فى القرآن فى (٦٣) موضعاً ، والعجيب أن موضعاً واحداً منها يستعمل فيه الذوق استعمالاً حقيقياً ، والبقية يستعمل فيها استعمالاً مجازياً ، وذلك الموضع هو قوله تعالى ﴿ **فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوآتها وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة** ﴾ (الأعراف : ٢٢) ، فالذوق باللسان هنا حقيقى .

والمواضع التى يستعمل فيها اللفظ مجازياً ، ترد لدلالات بلاغية عميقة ، بمعنى أن الذوق لما كان حاسة مباشرة توصل الشيء المتذوق إلى الإدراك بسرعة استعمل لبيان العذاب أو الرحمة التى يوقعها الله بعباده ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ **وإنا إذا أذقنا الإنسان منا رحمة فرح بها** ﴾ (الشورى : ٤٨).وقوله ـ ﴿ **هذا فليذوقوه حميم وغسّاق** ﴾ (ص : ٥٧).

ولما كان الذوق أمراً حسياً يعلم به الإنسان حقيقة المذوق بمجرد وضعه على اللسان ، استعمل فى (الموت) لبيان شدّته ، كقوله تعالى ﴿ **كل نفس ذائقة الموت** ﴾ (آل عمران : ١٨٥) .

٥ـ حاسة اللمس

وهى أيضا من نعم الله تعالى التى لا تحصى ، والإنسان إذا لامس شيئاً ناعماً ارتاح له ، وإذا لامس شيئاً خشناً أو مؤذياً تأذّى به ، ولذا فإن ملابس أهل الجنة من حرير وسندس وإستبرق ، خضراء ناعمة الملمس تريح الجلود والعيون الناظرة بجمالها ، وملابس أهل النار كما وصفها الله تعالى ﴿ **فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار** ﴾ (الحج : ١٩) .

واللمس يستعمل فى القرآن حقيقياً ومجازيًا ، فالحقيقى كما فى قوله تعالى ﴿ **ولو**

نزلنا عليك كتاباً فى قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين ﴾ (الأنعام : ٧) ، فهؤلاء الكفار المكذبون مصرون على دأبهم حتى ولو نزل على الرسول (ﷺ) كتاب من السماء يرونه ويلمسونه بأيديهم ، وذكر اللمس هنا للدلالة على أنهم مع تحققهم بالاطلاع عليه ، مكذبون كافرون .

أما الاستعمال المجازى فهو كقوله تعالى ﴿ **أو لامستم النساء فلم تجدوا ماءً فتيمموا** ﴾ [النساء : ٤٣] ، فاللمس هنا كناية عن الجماع ، إذ القرآن يكنى عن الأمور الجنسية بألفاظ متقاربة ـ كل فى سياقه بمعناه الخاص ـ كالمسّ واللمس والمباشرة والإفضاء والدخول بالمرأة ... الخ ..

٦ – العقل

والعقل وما فى معناه مثل اللُّب والنُّهى والحُلُم والحِجْر ، من نعم الله العظمى على الإنسان ، وبالعقل يتميز الإنسان عن الحيوان والجمادات ، وهذه النعمة مخلوقة ليستعملها فيما خلقت لأجله ، والألفاظ المتقاربة فى المعنى مع العقل يقوم كل منها فى سياق لا يقوم غيره مقامه فيه ، وذلك لون من ألوان بلاغة القرآن وإعجازه فى استعمال الألفاظ (١) .

وآيات الله تعالى ومعجزاته تدرك بالعقل والنقل ﴿ **كذلك يحيى الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون** ﴾ (النور : ٦١) ، وبعد ذكر بعض آيات الله ـ فى خطاب موسى لفرعون ـ قال سبحانه معقباً ﴿ **إن فى ذلك لأيات لأولى النهى** ﴾ (طه : ٥٤) ، وقال عن الكفار ﴿ **أم تأمرهم أحلامهم بهذا ، أم هم قوم طاغون** ﴾ (الطور : ٣٢) ، وقال ﴿ **والفجر . وليال عشر . والشفع والوتر ٠ والليل إذا يسر ٠ هل فى ذلك قسم لذى حجر** ﴾ (الفجر : ١-٥) ، وهذا التنوع فى التعبير يدل على تنوع وسائل الإدراك ، الذى يتيح للإنسان قدرة لا حدود لها فى الوصول إلى الحق إن استعملها بالصورة الصحيحة التى أرادها الخالق سبحانه .

والعقل إذن هو من أخطر الوسائل لإدراك الحقيقة ، ولذا ينعى القرآن فى (١٣) موضعاً منه ، ينعى على الضالين أنهم لا يستعملون عقولهم فى الوصول إلى الحق ، ويستعمل لذلك صورة واحدة هى الاستفهام الإنكارى (أفلا تعقلون ؟) هذا

---

(١) انظر فى بيان ذلك كتابنا : القرآن والترادف اللغوى ص ٤١ : ط دار بلال .

بالإضافة إلى الصور الأخرى لاستعمال المادة (عقل) فى بيان ضلال هؤلاء المكذبين وهى كثيرة فى القرآن ، وكل أولئك يبين لنامدى خطورة هذه الوسيلة لإدراك الحق أو معارضته ، ولا تباع الإسلام أو إنكاره.

٧ـ القلب (١)

والقلب سيد الأعضاء ، فإن صلح صلح الجسم كله ، وإن فسد فسد الجسم كله ، وهو مستقر العقيدة ، حقاً كانت أم باطلاً ، وبه تأتمر أعضاء الجسم كلها.

وهو نعمة يدرك بها الإنسان الخير والشر ﴿ **ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة** ﴾ (الأحقاف : ٢٦) والفؤاد يستعمل غالباً فى القرآن بدل القلب إذا كان السياق يوحى بحالة نفسيةخاصة كالخوف أو الحزن أو حدوث أمر عظيم ، لأنه مشتق من (التفؤد) بمعنى التوقد ، والفئيد اسم للنار التى يشتوى عليها (٢) ، قال تعالى ﴿ **وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً ، إن كادت لتبدى به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين** ﴾ (القصص : ١٠) والقلب هو أداة الفهم والتدبر وهو مستقر العقيدة كما أسلفت ، والقرآن ينعى على الكفار عدم تدبرهم القرآن ﴿ **أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها** ﴾ (محمد : ٢٤) ، فكأن القلوب الغافلة مغلّقة بأختام وأقفال لأنها لم تنفتح للنور الإلهى.

والقلوب كذلك وسيلة لكسب العلم والعمل ،خيره وشره ﴿ **ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم** ﴾ (البقرة : ٢٢٥) ، وبالقلب وعى النبى حقيقة الرسالة وحفظ القرآن بمجرد نزوله على قلبه ﴿ **نزل به الروح الأمين . على قلبك لتكون من المنذرين** ﴾ (الشعراء : ١٩٣ ــ ١٩٤) ، حيث كان جبريل عليه السلام ينزل إلى رسول الله بالآيات ، فتارة يُفْصَم عنه وقد وعى عنه ما قال ، وتارة يتمثل له الملَك رجلاً فيكلمه فيعى ما يقول (٣) . وبالقلوب يخاف المؤمنون ربهم ﴿ **إنما**

---

(١) لمزيد من التفصيل بتم الرجوع إلى «إغاثه اللهفان من مصائد الشيطان للإمام ابن قيم الجوزيه فهو من أجود الكتب فى بابه.

(٢) انظر كتابنا السابق ص : ١٩.

(٣) انظر فى تفصيل ذلك فتح البارى : ٢٦/١ ط الريان.

المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ﴾ (الأنفال : ٢) ، وبالقلوب يكفر الكفار بربهم ﴿ وإذا ذكر الله وحده اشمأزّت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة ﴾ (الزمر : ٤٥) ، فللقلب إذن خطره الذى لا ينكر فى الهداية أو الغواية ، نسأل الله هداية قلوبنا إلى الحق .

ومما تقدم نعلم أن هذه الوسائل جميعاً مخلوقة لغاية عظمى وهدف مرسوم من قبل الخالق ، وعلينا إذن أن ندرك بها ما يأمرنا الله به من النظر فى آياته والتدبر فى ملكوته ، لأننا مسئولون عن ذلك كله ، والله أعلم .

الفصل الثانى

من خصائص الجمال فى القرآن الكريم

١- الجمال فى القرآن ليس ظاهريًا .

٢- الجمال فى القرآن ليس غاية فى ذاته .

٣- الجمال فى القرآن وحدة متناسقة مترابطة .

من خصائص الجمال في القرآن الكريم

وأوجز في هذا الفصل بعض خصائص الجمال في القرآن كما تظهر من آياته، دون الإطالة في التفاصيل، ومن ذلك:

١- **أن الجمال في القرآن ليس ظاهرياً** يعني بالقشور دون اللُّب، وإنما يتجاوز الظاهر - وإن كان لا يهمله - إلى جمال الجوهر وأسرار التركيب، ليربى في المؤمن ملكة الجمال التي تزيده إيماناً بربه الذي خلقه وعلمه الحق وحذره من الباطل، ولكي يبتعد المسلم في الوقت نفسه عن ذلك الزيف الذي تصوره له وسائل الإعلام والثقافة على أنه الجمال الذي لا جمال بعده، وأكثره مما زين الشيطان لأوليائه، ولست في حاجة إلى أن أذكرك - على سبيل المثال - بمظاهر العُرْي بدرجاته المتعددة، بدءاً بالسيقان والصدور والرؤوس في شوارعنا - نحن المسلمين - إلى العرى على الشاطئ، إلى نوادى العراة وشواطئ العراة .... وكل أولئك تروج له وسائل الإعلام، وكل أولئك يصدم المسلم بما يخالف أمر الله ورسوله!

ولقد عجبت يوماً أن رأيت أكبر دار مصرية لنشر الكتب (الهيئة المصرية العامة للكتاب) قد نشرت الأعمال الكاملة لرجل قد ملأوا الدنيا به ضجيجاً وهو (جبران خليل جبران) وامتدت يدى إليها في طبعتها الأنيقة الفاخرة، فرأيت فيما رأيت صوراً للوحاته العارية تماماً حتى من ورقة التوت !! و هذا ما تعلمه الرجل من رسامى الغرب، وهذا أيضا بعض مايُراد لأمتنا أن تتجرعه من ألوان الثقافة!

فلا يغرنَّك أيها المسلم إذن أن يصنع القوم تماثيل وأصناماً وضعوها بأنفسهم لأنفسهم، ثم صوروها لنا على أنها (القمم) في الفن والثقافة والأدب.

والقرآن لم ينسَ هذا حين تحدث عن فرعون وقوة إعلامه، وعن سلوك القادة والمترفين وأعوانهم، وعن مكر اليهود وتحريفهم للحقائق الذى طال التوراة نفسها،

ولم يغن هذا الزيف كله شيئاً عن أصحابه ، إن هو إلا إمتاع دنيوى قليل ، ثم بعد ذلك عذاب مقيم ! والمسألة على كل حال ليست بالقوة المادية ، وإنما الميزان عند الله هو : هل تتبع الحضارة ـ أى حضارة ـ منهج الله فى تصوراتها ورؤاها وسلوكها العملى فى الحياة ، أم لا ؟ وعلى قدر الجواب يكون الثواب أو العقاب ، ويبقى الزخرف والطلاء الكاذب والزينة الخادعة التى تضعها الحضارة المعاصرة على وجهها قناعاً يخدع كثيراً من الناس ، حتى تنتهى تلك الحضارة نهايتها المحتومة ـ كما حدث لغيرها ـ إما بهلاك جماعى مفاجئ ،وإما بالتحلل والتفسخ من الداخل .

وعلى هذا الأساس يجب أن تكون رؤية المسلم للجمال رؤية إسلامية فحسب ، فما علّمه ربه وعلمه الرسول أنه جميل وحسن فهو كذلك ، وما علمه ربه وعلمه الرسول أنه قبيح فهو كذلك وإن زينه الشيطان وأولياؤه وروّجوا له وأقاموا لأجله الدنيا وأقعدوها!

ومقياس الجمال عند الله تعالى واحد لايتبدل ، ويقوم فى أساسه على ما يصلح حال الإنسان ، ويتدرج به فى حياته الدنيا بسلام إلى مرحلة (الإحسان) وهى أعلى المراتب الإيمانية ، حيث يعبد المسلم ربه كأنه يراه كما فى الحديث الصحيح ، فإن لم يكن يرى ربه فإن ربه يراه ، والإحسان يهيئ المحسن للانتقال إلى (المحطة) الأخيرة فى مسيرته الطويلة ، وهى تلك التى تكتمل فيها كل مظاهر الجمال ، ألا وهى الجنة فى الآخرة .

أما إذا تُرك الإنسان لنفسه فهو ذو نزعات وأهواء لا تنتهى ، وهو عرضة للصواب والخطأ والتبدل ... لذلك تجد الذين يتبعون غير منهج الحق أقرب إلى الخلاف والتناقض والاضطراب فيما يقبلون أو يرفضون لأنهم لا يصدرون عن منبع واحد معصوم له صفة الخلود ، بل عن مشارب وأهواء زينها لهم الشيطان وأولياؤه ، وهو الذى قطع العهد على نفسه بإغوائهم حين أخرجه الله من الجنة ﴿ **قال رب بما أغويتنى لأزينن لهم فى الأرض ولأغوينهم أجمعين . إلا عبادك منهم المخلصين** ﴾ (الحجر : ٣٩ ـ ٤٠) .

٢- إن الجمال في القرآن ليس غاية في ذاته ، وإنما هو وسيلة إلى ماهو أعظم ، إنه وسيلة للوقوف على بديع صنع الله تعالى ، ولذا نجد كلمة (بديع) التى توحى بالجمال تستعمل فى القرآن فى بيان خلق السماوات والأرض دون غيرهما ، لأنهما ـ والله أعلم ـ تشملان كل ما سواهما من المخلوقات ـ إلا ما لا نعلمه ـ وفيهما من مظاهر الابداع الإلهى فى الصنعة والتركيب والانسجام ما ليس يحصيه عقل ، قال تعالى ﴿ **بديع السماوات والأرض أنى يكون له ولد ؟** ﴾ (الأنعام : ١٠١) .

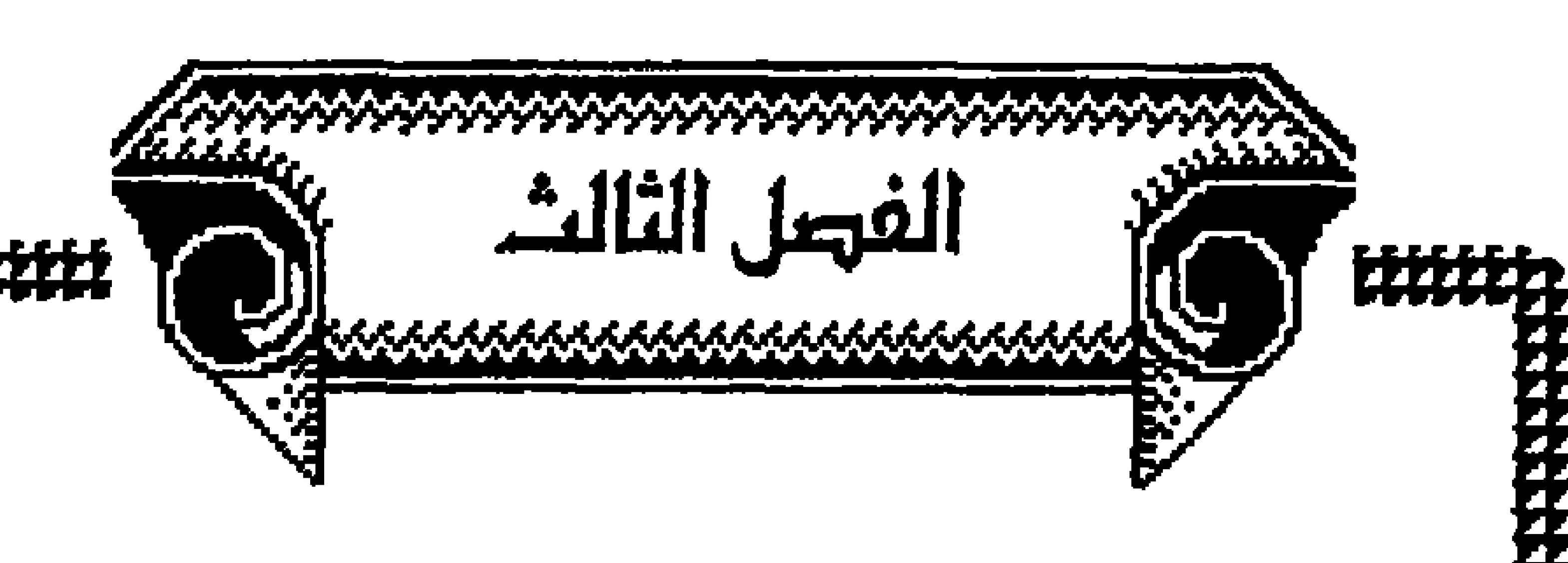
ومن أجل تربية الإحساس الجمالى للمسلم نجد فى القرآن آيات تدعونا دعوة صريحة إلى النظر إلى الجمال فى خلق الله ، وصولاً بذلك إلى اكتمال الإيمان ، ونكتفى فى فى ذلك بآية واحدة ، قال تعالى ﴿ **وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء ، فأخرجنا منه خَضِراً نخرج منه حباً متراكبا ،ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبهاً وغير متشابه ، انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه ، إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون** ﴾ (الأنعام : ٩٩) ، فالمراد من النظر هنا الاستمتاع ، بمعنى إشباع النفس بالجمال ليكون حافزاً لإدراك أسرار الصنعة الإلهية ، وكيف أنه ـ سبحانه ـ أنزل الماء فأخرج به النبات وفيه تلك المادة الخضراء (خضراً) التى تتكون منها الثمار وتتحول إلى حب جميل متراكب ، ثم تلك العراجين من النخل الدانية بعضها من بعض ، وتلك الجنات من الأعناب والزيتون والرمان المشتبه فى الأرض التى يُزرع فيها والماء الذى يشرب ، غير المتشابه فى الطعم رغم أن تربته واحدة ، وماءه واحد !! ثم يطالب المسلم بالنظر إلى هذا كله وخصوصاً إلى الثمر وجماله ونضجه وتراكبه ، وبذلك تتربى لديه ملكة الإحساس الجمالى كما يريدها الله تعالى .

٣ – إن الجمال فى القرآن وحدة هندسية متناسقة فى كل شيء ، تترابط أجزاؤها ولا تنفصم عُراها ، وهى تشمل كل ما خلق الله تعالى لتكون سمة أساسية مشتركة فى خلقه ، ويظهر ذلك فى كل مفردات الكون التى تعبده وتسبحه ـ إلا بعض الجن والإنس ، كما سيأتى بيانه ـ قال تعالى ﴿ **وإن من شيء إلا يسبح بحمده** ﴾ (الإسراء : ٤٤) ، وكل شيء يعبده حق عبادته ويسبح له فى تناسق

وانسجام كونى عجيب ، إلا بعض المكلفين من الجن والإنس ، حيث هما الجنسان المكلفان المخيران المحاسبان يوم القيامة ، من ذلك يتضح لنا أن الكفار - جنهم وإنسهم - هم حركة (نشاز) فى هذا الكون لا تنسجم معه ، ولكنها لا تستطيع أن تغير من هذا النظام شيئاً وماذا تكون الأرض و من عليها فى ملكوت الله الواسع الرحيب ؟ إذن فالكفار هم خارج دائرة التناسق الكونى ، ولذا لا حرية لهم فى التمتع بخيرات هذا النظام الكونى حين يقوم الحساب ، وإنما لهم مكان خاص لا يستطيعون فيه (النشاز) عن حركة الكون وانسجامه ، إن مكانهم هنا لك فى النار ! وسمة التناسق والانسجام هى التى تحفظ لهذا الكون وحدته وعدم تناقض مفرداته أو اضطرابها رغم كثرتها الهائلة ، وهذه السمة - التناسق - هى مظهر من مظاهر وحدانية الله تعالى ، فهى دليل على أنه تعالى واحد لا شريك له فى ملكه ، لأنه لو كان معه إله لما ظهر هذا التناسق فى مفردات الكون ،و مصداق ذلك من القرآن الكريم ﴿ **لوكان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون** ﴾ (الأنبياء : ٢٢) .

وأنت تلاحظ دائماً ذلك الجمال الفطرى السائد فى كل شىء لم تمتد إليه يد الإنسان فى هذه الأرض ، بدءاً بالتشكيلات البديعة التى ترسمها الرياح على صفحات الرمال ، وانتهاء بالغابات البكر التى ماإن تمتد إليها يد الإنسان حتى تهلك ، والإنسان إذا مد يده إلى كنوز الأرض يستهلك منها بغير منهج إلهى - وهذا ما يحدث فعلاً - فإنه يفسد كثيراً من مظاهر الطبيعة والجمال الفطرى فى الأرض ، بل إنه يسبب للأرض الاختلال والاضطراب ، ولعل أكبر المشاكل التى تواجه الإنسان اليوم هى - أساساً - مشاكل بيئية ، سببها ذلك السباق المحموم لامتلاك كنوز الأرض والتمتع بها ، فى حضارة لا تعرف غير المتعة والترف ، مع قلة الاكتراث بما ينتج عن ذلك من فقدان الأرض للتوازن البيئى والطبيعى ، أو جمالها الفطرى الذى أودعه الله فيها ، والذى يحفظ لها استمرارها فى أداء وظيفتها على الوجه الأمثل فى انسجام ووئام .

كانت هذه بعض سمات الجمال وخصائصه فى القرآن ، وليست كلها ، لأن الجمال يشيع فى كل آية من آياته ، سواء من حيث التركيب اللفظى أو من حيث المعنى ، ولا عجب فالقرآن كلام الله تعالى ، وهو مأدبة الله فى الأرض ، من أخذ منها أخذ بحظ وافر لدنياه وآخرته ﴿ **إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم** ﴾ (الإسراء : ٩) .



الجمال وما فى معناه فى القرآن الكريم

١- الجمال فى القرآن

٢- الحسن فى القرآن

٣- الزينة فى القرآن

...... ا - الزينة الحلال المندوب إليها

..... ب - الزينة التى تحل فى أحوال ومواضع وتحرم فى أخرى

...... ج - الزينة الحرام

٤- الزخرف فى القرآن

الجمال وما فى معناه فى القرآن الكريم

فى القرآن الكريم ألفاظ يقترب معناها من معنى الجمال ، مع الفارق الدلالى بينه وبينها مثل الحسن والزينة والزخرف ، وسأبحث كلاً منها على حده باختصار .

١ – الجمال فى القرآن

ورد لفظ الجمال بصيغتين فى القرآن ، فى الأولى استعمل القرآن المصدر (الجمال) فى موضع واحد ، وفى الثانية استعمل الصفة المشبهة (جميل) فى سبعة مواضع (١) .

أما المصدر فهو قوله تعالى﴿ **والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون . ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون** ﴾ (النحل : ٥-٦).

وهنا نجد امتنان الله على عباده والناس جميعاً بخلقه الأنعام لهم وتسخيرها لخدمتهم ، والناس ـ بالإضافة إلى منافعها المادية ـ يجدون ما يريحهم بامتلاكهم إياها ، خصوصاً أولئك الذين يربون الأنعام ويعايشونها فى غدوها ورواحها ، فهم يجدون فى غدوها إلى المراعى و رواحها منها (جمالاً) يملأ العين والنفس راحة وأمناً بامتلاكها .. وكل ذلك ينبغى أن يقود صاحبه إلى شكر نعمة ربه الذى أنعم عليه بهذه الأنعام .

أما المواضع السبعة التى يرد فيها لفظ (جميل) فهى :

١ – ﴿ **قال بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل ، والله المستعان على ما تصفون**﴾ (يوسف : ١٨) .

٢ – ﴿ **قال بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل ، عسى الله أن يأتينى بهم جميعاً** ﴾ (يوسف : ٨٣) .

---

(١) اعتمدنا فى الإحصاء هنا وفيما يأتى على كتاب المعجم المفهرس الألفاظ القرآن الكريم العلامة محمد فؤاد عبد الباقى ـ رحمه الله .

٣ - ﴿ وإن الساعة لآتية فاصفح الصفح الجميل ﴾ (الحجر : ٨٥) .

٤ - ﴿ ياأيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحاً جميلاً ﴾ الأحزاب : ٢٨ .

٥ - ﴿ فمتعوهن وسرحوهن سراحاً جميلاً ﴾ الأحزاب : ٤٩ .

٦ - ﴿ فاصبر صبراً جميلاً ﴾ (المعارج : ٥)

٧ - ﴿ فاصبر على مايقولون واهجرهم هجراً جميلاً ﴾ (المزمل : ١٠) .

وأول ما نلاحظ على لفظ (جميل) فى هذه المواضع أنه جاء (صفة) لاسم سابق عليه ، أى أن ثمة شيئًا موصوفاً قبله ، ففى الآية الأولى والثانية نجد أن يعقوب ـ أبا يوسف ـ عليهما السلام ، يقول لبنيه إنه سيصبر صبراً جميلاً ، وصبره الأول على فقدان يوسف ، ، والثانى على احتباس يوسف أخاه ـ قبل أن يعرفوا حقيقة يوسف ـ والصبر الجميل هو الصبر الذى لا جزع معه ولا يأس من روح الله ، وقد جزاه الله عن صبره الجميل فأعاد إليه ولديه ، وهاجر إلى مصر عزيزاً كريماً شاكراً لربه .

وفى الآية الثالثة يأمر الله تعالى نبيه أن يصفح عن المشركين الذين آذوه ، وأن يصفح الصفح الجميل ، وكان هذا فى مكة قبل الهجرة ، ثم نسخ ذلك بقتال المشركين فيما بعد ، ولكن بقى لرسول الله ﷺ ذلك الخلق (الصفح الجميل) حتى وفاته . وأصل الصفح فى اللغة الإعراض بصفحة الوجه ، ثم استعمل للتجاوز عن السيئات ، وكان (الجمال) فى صفح النبى ﷺ عن أعدائه سبباً فى إسلام كثير من الناس ، وهذا مثال واحد أنقله مختصراً ، روى الطبرى « أن صفوان بن أمية اتفق مع عمير ابن وهب على أن يتحمل الأول دين الثانى ويكفل أولاده ، فى مقابل أن يتكفل عمير بقتل النبى ﷺ ـ وكان ذلك بعد غزوة بدر ـ فشحذ عمير سيفه وأشربه السم ، وتوجه إلي المدينة بحجة فداء ولده من الأسر ، وما إن رآه عمر متوشحاً سيفه بباب المسجد حتى أمسك به ، وأمر بعض الصحابة أن يجلسوا إلى جوار النبى ﷺ خوفاً من اعتداء عمير عليه ، ثم دخل عمر بالرجل يجره إلى رسول الله ﷺ ،فقال عمير : أنعموا صباحاً ،فقال النبى ﷺ : قد أكرمنا الله بتحية خير من تحيتك ياعمير ، بالسلام تحية أهل الجنة ، ثم قال : ما جاء بك ياعمير ؟ فكذب عمير على النبى ، فأخبره (١) باتفاقه مع صفوان فى حجر الكعبة ، فقال عمير : أشهد أنك

---

(١) أى : النبى ﷺ .

رسول الله ! قد كنا يارسول الله نكذبك بما كنت تأتينا به من خبر السماء ، ومايتزل عليك من الوحى ، وهذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان ،فوالله إنى لأعلم ما أتاك به إلا الله ، فالحمد لله الذى هدانى للإسلام ... وقد حسُن إسلام الرجل ، وعاد إلى مكة ليدعو قومه إلى الإسلام ويقتصّ من المشركين (١) !!

ونعود إلى الآيات التى معنا ،ففى الآيتين الرابعة والخامسة نجد أن الله تعالى يصف السراح وهو الطلاق ، بأنه يجب أن يكون سراحاً (جميلا) حيث يأمر رسوله فى الآية الرابعة أن يخيّر أزواجه بين الله ورسوله فيبقين مع رسوله ، وبين الحياة الدنيا فيُسرّحن سراحاً جميلاً - وكان ذلك فى موقف خاص حين طلبن زيادة النفقة ـ وقد اخترن الله ورسوله والدار الآخرة على متاع الدنيا وزينتها ، وفى الآية الخامسة يأتى الأمر صريحاً للمسلم الذى يريد طلاق زوجه أن يكون سراحه (جميلاً) ، ولكن لماذا الجمال هاهنا ؟ لاريب أن النفس فى حال كهذه التى يفترق فيها الزوجان تكون مليئة بالبعض والكراهية والشحناء ... وهى لهذا تحتاج إلى (ضابط) يحدد حركتها ويضبطها ، وليس ثم أفضل من (الجمال) فى القول والفعل بماله من أثر يهدىء النفوس !

وفى الآيتين السادسة والسابعة يؤمر النبى ﷺ أن يصبر صبراً جميلاً ، أى أن يكون صبره جميلاً يعفو به عن المسىء ، ويصل به الأرحام ، وإن عاداه ذوو رحمه ، ويملأ حياة المؤمنين بالله أملاً فى النصر ، وإن كانوا قلة مضطهدين فى الأرض ، ولقد حقق صبره (الجميل) كل الأهداف التى صبر من أجلها .

وقد رأينا إذن أن الجمال سمة من سمات السلوك القويم ، الذى ينبغى على المسلم أن يلتزم به ، وصولاً بذلك إلى استحقاق رحمة الله تعالى فى الدنيا والآخرة ، واستعمال الناس لهذا اللفظ(الجمال) فى العصر الحاضر قد يتفق مع استعمال القرآن له ، أو يختلف ، وقد توصف أشياء كثيرة بالجمال ؛ مع أنها قبيحة بالمقياس القرآنى للجمال ، وهذا مثال واحد ، حيث ترى كثيراً من النساء ، تمشى إحداهن فى الشارع وقد أظهرت زينتها وفتنتها للناس جميعاً ، ولطّخت وجهها بألوان المساحيق ... ويحسب كثير من الجهلاء أنها ـ وقد عصت ربها ـ جميلة ، ولكن الجمال الحقيقى هو جمال

---

(١) القصة فى تاريخ الطبرى : ٢ / ٤٧٢ وما بعدها ، ما . دار المعارف .

الجوهر ، حيث يتجاوز القرآن فى رؤيته للجمال تلك الواجهة البراقة الخادعة التى تخلب عقول الجهلاء وتثير شهواتهم وتعمي أبصارهم ، يتجاوزها إلى الجوهر الذى يجب أن يكون هو المقياس الحقيقى ، وكم من زيجات فشلت لأن الدافع إليها أساساً كان ذلك الجمال الخادع ، فإذا تجاوز الإنسان ذلك القناع ليبحث عما وراءه لم يجد شيئاً ذا غناء ! وقس على هذا ألواناً أخرى من الجمال فى مفاهيم العصر .

وإذ نقول إن المقياس الجمالى هو مقياس الجوهر لا الشكل الخارجى فحسب ، فإنما نعني بالشكل الخارجي ذلك الجمال المزيف المصطنع ، لا ذلك الجمال الفطرى الخِلْقى الذى هو مطلوب فى كل شيء وفى المرأة خصوصاً ، وعلى هذا الأساس أباح النبى ﷺ للخاطب أن ينظر إلى وجه المرأة التى يريد نكاحها ، لعله يجد ما يحببه فى نكاحها ويقرب بينهما .

ولفظ الجمال إذن يأتى غالباً (وصفاً) لسلوك أو خُلُق ، ولهذا ينبغى أن يحكم الجمال سلوك المسلم فيشيع فى حياة الجماعة المسلمة الأمن والسكينة .

٢ - الحسن فى القرآن

وردت مادة (حسن) فى القرآن فى (١٩٤) موضعاً بصيغ الاسم والفعل ، وهذه الكثرة تفسر لنا أهمية الحسن والإحسان فى الإسلام حيث يتجاوز الحسن فى القرآن مجرد الوصف الظاهر – وإن كان لا يهمله – ليبلغ الأعماق ، ولتوصف بالحسن والإحسان أعمال الله تعالى ، وأعمال المحسنين من عباده ، وليوصف بالإحسان أناس بلغوا المرتبة العليا فى طريق الإيمان كالأنبياء والصالحين ، ولتوصف الجنة بأن فيها الخيرات الحسان ، وتكون الحسنى هى الجزاء الأعظم لمن أحسن فى الدنيا .... الخ .

ولقد وُصفت النساء بالحسن فى موضع واحد هو قوله تعالى ﴿ **لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن** ﴾ (الأحزاب : ٥٢) وهذه الآية خطاب للنبى حين خيّر الله أزواجه بين الله ورسوله وبين الحياة الدنيا وزينتها فاخترن الله ورسوله ، فحرم الله عليه الزواج بغيرهن ولو أعجبه حسنهن ، ثم نُسخ هذا الأمر قبل وفاته .

ومعلوم من سيرته ﷺ أن جمال المرأة لم يكن المقياس الوحيد الذى يحتكم إليه فى الزواج ، بل هو القائل « فاظفر بذات الدين تربت يداك » (١) أى أن دين المرأة وأخلاقها هما المقياس ، ومع ذلك فقد جعل القرآن (الحسن) واحداً من الاعتبارات التى يؤخذ بها فى هذا الأمر ، لأن الجمال مطلوب كقيمة إنسانية تهفو إليها النفوس والقلوب السليمة .

ولأجل هذا خلق الله نساء الجنة بأوصافهن الجميلة فى القرآن والسنة ، من الحور العين والعُرُب الأتراب ، ومن الطاهرات اللائى لم يطمثهن إنس ولا جان ... الخ .
والإحسان صورة من صور الحسن الذى هو أخو الجمال ، ولذا توصف الأعمال الصادرة من المولى سبحانه بالحسن والإحسان لأنه هو سبحانه المحسن ، ومن ذلك .

١ - ﴿ الذى أحسن كل شئ خلقه ﴾ (السجدة : ٧)

٢ - ﴿ وصوركم فأحسن صوركم ﴾ (التغابن : ٣)

٣ - ﴿ فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتاً حسناً ﴾ (آل عمران : ٣٧)

وهذا القبول الحسن والنبات الحسن هو الذى جعل مريم سيدة نساء العالمين ، وجعلها وابنها المسيح عليهما السلام آية للعالمين ، ولا يضيرهما فى شىء أن يُعبدا من دون الله ، فالله تعالى وهما ونحن المسلمين برآء من الشرك والمشركين فى الدنيا والأخرة !

والإحسان هو المرتبة العليا من مراتب التدرج فى سلم العبادة والعمل الصالح فى الإسلام ، حيث يكون المحسنون أفضل الناس عند الله تعالى ، و حين سئل الرسول ﷺ عن الإسلام قال : « أن تعبد الله ولا تشرك به شيئا وتقيم الصلاة المكتوبة وتؤدى الزكاة المفروضة وتصوم رمضان ، وسئل عن الإيمان فقال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتابه ولقائه ورسله وتؤمن بالبعث الآخر ، وسئل عن الإحسان فقال : أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك (٢) .

والسائل هو جبريل عليه السلام ، والواضح من السياق أن الإحسان أعلى مرتبة من الإسلام والإيمان ، حيث يقف المحسن من البشر بإزاء الخالق يراه سبحانه فى بديع

(١) حديث صحيح : أخرجه البخارى (٩/١١٥) ومسلم (١٤٦٦) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه مرفوعاً .

(٢) حديث صحيح : أخرجه مسلم (٨) والنسائى (٨/٩٧ - ٩٨) والترمذى (٢٦١٠) وابن ماجه (٦٣) وأحمد (١/٢٧/٢٨/٥٢ /٥٣) .

صنعه ، فإن لم يكن يرى ربه ، فهو يعلم أن الله يراه وأنه رقيب عليه ، فلا يأتى من الأعمال إلا بالحسن ، ولذا فإن هذه الرؤية ترفع من سلوك المحسن أمام ربه ، وتجعله سلوكاً مثالياً ، باتباع المحسن أوامر الله واجتناب نواهيه .

ولهذا السبب يوصف المرسلون دائماً بأنهم أئمة هذا الصنف من البشر ، إنهم المحسنون ، قال تعالى :

١- ﴿ **سلام على نوح فى العالمين . إنا كذلك نجزى المحسنين** ﴾ (الصافات : ٧٩ - ٨٠) .

٢- ﴿ **سلام على موسى وهارون . إنا كذلك نجزى المحسنين** ﴾ (الصافات : ١٢١ - ١٢٢) والإحسان إلى الوالدين أحد صور الإحسان التى يؤمر بها الإنسان وهو يرد فى القرآن غالباً مقروناً بالأمر بعبادة الله وحده ، والنهى عن الشرك به ، ومن ذلك :

١ - ﴿ **واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً** ﴾ (النساء: ٣٦) .

٢ - ﴿ **وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا** ﴾ (الإسراء : ٢٣) . وقد جاء لفظ الإحسان هنا هكذا (إحساناً) بالمصدر المنصوب بفعل محذوف تقديره (وأحسنوا) وفى هذا الحذف بلا غة وجمال فى هندسة العبارة يؤدى الغرض المطلوب بدقة ، إذ إن وضع الفعل فى السياق يجعل ثمة (فاصلاً) بين الأمر بعبادة الله والنهى عن الإشراك به ، وبين الأمر بالإحسان إلى الوالدين . والقرآن لا يريد إلى هذا الفصل ، بل عطف بالواو أقرب حروف العطف إلى السياق ، وهذا كله يحمل دلالته على أن عبادة الله حق عبادته لا تتحقق إلا بالإحسان إلى الوالدين !!

والذى يعجز عن شكر المنعم القريب إليه (الوالدين) فإنه لا شك عاجز عن شكر المنعم الأعظم وهو الله تعالى .

ولا يقتصر الإحسان فى القرآن على العمل وإنما يتعداه إلى القول ، لأن القول والعمل فى الإسلام لا ينفصلان ، ومن ذلك ﴿ **وقولوا للناس حُسْناً وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة** ﴾ (البقرة : ٨٣) ، وأنت ترى أن قول الحسن مقدم فى هذا السياق على الصلاة والزكاة ، وفى هذا دلالة على أهمية الكلمة الحسنة الطيبة فى الإسلام ،

حيث تكون الكلمة الطيبة صدقة يثاب عليها المؤمن .

وكل عمل طيب صالح فى الإسلام يسمى (حسنة) وليس له جزاء إلا (الحسنى) فى الآخرة :

١ - ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ﴾ (يونس : ٢٦) .

٢ - ﴿ ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى ﴾ (النجم : ٣١) .

وهكذا نرى أن الإحسان ـ أخا الجمال ـ له أهميته العظمى فى الإسلام ، بحيث تبدو مقاييسه هى الحق الواجب الاتباع .

٣ - الزينة فى القرآن

وردت مادة (زين) فى القرآن فى (٤٦) موضعاً فى صورة الاسم والفعل ، وباستعراض هذه المواضع نجد أنها على ثلاثة أنواع :

ا - الزينة الحلال المندوب إليها .

ب - الزينة الحلال التى تحل فى أحوال ومواضع وتحرم فى أخرى

ج - الزينة الحرام .

ولكى نتعرف على هذه الأنواع مفصلة ، سنبحث كلاًمنها على حده .

ا - الزينة الحلال المندوب إليها

حين خلق الله تعالى لعباده أنواع الزينة أرشدهم إلى اتباع منهج الحق فيها ، وهو سبحانه يطاع ولا يسأل عما يفعل ، وقد خلق سبحانه أشياء ثم حرمها على عباده كالخنزير ، لأنه وحده أعلم بما يضر وينفع ، ولا يريد لعباده إلا الخير ، ولذا فمن واجب المسلم أن يبحث عن الزينة الحلال المندوب إليها ويتمسك بها ويعرض عما سواها .

ومن الزينة الحلال المندوب إليها ما فى قوله تعالى ﴿ يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين ﴾ (الأعراف : ٣١) ، فالمسلم مأمور أن يأخذ زينته من لباس وطيب إذا نوى الوقوف بين يدى الله تعالى

للصلاة ولهذا كان الرسول ﷺ يأمر المسلمين بكثرة الاغتسال ويوجبه يوم الجمعة ، ويأمرهم بالتطيب وبترك أكل الثوم والبصل قبيل التوجه إلى المسجد (١) .... وإذا كان الإنسان مندوباً إلى أخذ زينته عند كل مسجد ، فإنه مأمور كذلك بألا يحلل أو يحرم إلا بأمر من الله تعالى ،فالحكم بالهوى من عمل الشيطان وأوليائه ، ولذا نجد فى الآية التالية مباشرة من السورة نفسها ﴿ **قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق** ﴾ (الأعراف : ٣٢) وهذا الاستفهام الإنكارى الموجه إلى الذين يحللون ويحرمون بغير هدى من الله تعالى يوضح للمسلم أن أمر الحلال والحرام لله تعالى وحده ، وأن الاعتداء على حقوق الله جرم خطير ، وأول صور الاعتداء هذه الحكم بغير ما أنزل الله تعالى .

ومن الزينة الحلال المندوب إليها قوله تعالى ﴿ **ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه فى قلوبكم** ﴾ (الحجرات : ٧) ، فالله تعالى حبب إلى عباده الإيمان وزينه فى قلوبهم بحيث كان الواحد من صحابة الرسول ﷺ يقبل أن يقتل أو يلقى فى النار أو يطرد من أهله وبيته ، ولا يقبل أن يهتز إيمانه المزين فى قلبه لحظة واحدة ، وذلك الإيمان المزين فى القلوب هو الذى ثبّت عماراً وزوجه سمية ـ أول شهيدين فى الإسلام ـ ثبتهما فى ساحة العذاب حتى الموت !!

وذلك الإيمان المزين فى القلوب هو الذى جعل زيداً بن الدثنّة ـ وقد أسره المشركون فى العام الرابع للهجرة ـ يقول وقد قدموه للقتل ، فسأله أبو سفيان : أنشدك الله يازيد ، أتحب أن محمداً عندنا الآن مكانك نضرب عنقه وأنك فى أهلك ؟ قال زيد رحمه الله : والله ما أحب أن محمداً الآن فى مكانه الذى هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وأنا جالس فى أهلي !! قال أبو سفيان : ما رأيت فى الناس أحداً يحب أحداً كحب أصحاب محمدٍ محمداً (٢) !

ومن الزينة الحلال التى يستمتع بها الناس تزيين السماء بالكواكب والمصابيح ، ويأتى ذلك فى القرآن فى مواضع كثيرة ، ، وفيه دعوة صريحة للتمتع بالنظر إلى صفحة السماء المزينة بالكواكب والنجوم ، وكيف أن الله تعالى على كل شيء قدير ، كل ذلك ليزداد الإيمان عند المؤمن ، وليجد الضالون سبيلاً إلى الهداية إن أرادوا .

---

(١) انظر رسالة « بيوت لا تدخلها الملائكة » من إصدارات دار الصحابة .

(٢) تاريخ الطبرى : ٥٤٢/٢ .

قال تعالى :

١ - ﴿ أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج ؟ ﴾ (ق : ٦).

٢ - ﴿ إنا زينا السماء الدنيا بزينةٍ الكواكب ﴾ (الصافات : ٦) .

كانت تلكم بعض الأمثلة للزينة التى أحل الله لعباده ، وأمرنا أن نأخذ بها ونبحث عنها لنعيش حياة منسجمة مع نواميس الكون ، فمن بحث عن غير ذلك مما حرم الله فإنه يبدل نعمة الله عليه ، بل هو بذلك يبدو ـ كما قلت سابقاً ـ نغمةً (نشازاً) فى هذا الكون الرحيب المسبح لله وحده !

ب ـ الزينة التى تحل فى أحوال ومواضع وتحرم فى أخرى

وهذا النوع من الزينة على قسمين ، الأول بحسب نية العبد فيه ، والثانى فى أيام معلومة هى الحج والعمرة .

ومن الأول قوله تعالى ﴿ زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ، ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب ﴾ (آل عمران : ١٤).

ويخطىء كثير من المسلمين فى فهم هذه الآية إذْ يظنون أن التزيين ـ حيث ورد فعله مبنيا لما لم يُسمَّ فاعله ـ هو من عمل الشيطان ، والحقيقة غير ذلك ، إذ المزين هو الخالق سبحانه ، ولكنه حدَّ ذلك بحدود لا ينبغى للناس تجاوزها ، ولنقرأ تفسير ابن كثير لهذه الآية ، قال : يخبر الله عما زين للناس فى هذه الدنيا من أنواع الملاذ من النساء والبنين ، فبدأ بالنساء أولاً لأن الفتنة بهن أشد ، لما ثبت فى الصحيح أنه ﷺ قال « ما تركت فتنة أضر على الرجال من النساء » (١) ، فأما إذا كان القصد بهن الإعفاف وكثرة الأولاد فهذا مرغوب فيه مندوب إليه ، كما وردت الأحاديث الصحيحة

---

(١) حديث صحيح : أخرجه البخارى (١١٨/٩) ومسلم (٢٧٤٥) من حديث أسامة بن زيد رضى الله عنهما مرفوعاً .

بالترغيب في التزويج والاستكثار منه .... وقالت عائشة : « لم يكن شيء أحب إلى الرسول ﷺ من النساء إلا الخيل ، و حب البنين تارة يكون للتفاخر والزينة فهو داخل في هذا أي (المذموم) وتارة يكون لتكثير النسل وتكثير أمة محمد ﷺ ممن يعبد الله وحده لا شريك له ، فهذا محمود ممدوح ، وفي الحديث « تزوجوا الودود الولود فإني مكاثر بكم الأمم يوم القيامة » وحب المال تارة يكون للفخر والخيلاء والتكبر على الضعفاء والتجبر على الفقراء فهذا مذموم و تارة يكون للنفقة على القربات وصلة الأرحام والقرابات ووجوه البر والطاعات ، فهذا ممدوح محمود شرعاً » (١) .

وفي هذا النص نجد أن نية العبد وسلوكه فيما رزقه الله وزيّنه له هي الفيصل في الحكم له أو عليه ، ومن هذا القبيل أيضاً قوله تعالى ﴿ **المال والبنون زينة الحياة الدنيا ، والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملاً** ﴾ (الكهف : ٤٦) ، وأنت ترى أن اتباع منهج الحق فيما رزقنا الله من زينة يجعلها حلالاً طيباً مباحاً مندوباً إليه ، أما إذا اتخذها الإنسان للفخر والتكبر كما هو الشأن عند كثير من الأغنياء ـ أفراداً وجماعات ودولاً ـ فهذا لا شك نذير سوء لهم ، وهم محاسبون على ذلك يوم القيامة ، روى الشيخان أن النبي ﷺ قال : « بينما رجل يمشي قد أعجبته جمته وبرداه إذ خسف الله به الأرض فهو يتجلجل في الأرض حتى تقوم الساعة (٢) » وذلك رجل قد أعجبته لِمّة شعره ولباسه فشعر بالكبر والفخر والخيلاء ، فخسف الله به الأرض ، وقس على هذا كل من يتبع منهجاً غير الحق في حياته ، إلا أن الله تعالى له سنن في الثواب والعقاب ، وهو سبحانه إن كان يعاقب بعض الناس في الدنيا ، فقد يؤخر العقاب لغيرهم إلى الآخرة كما نعلم من سنن الثواب والعقاب في القرآن الكريم .

ومن الزينة التي تحل في موضع وتحرم في آخر زينة المرآة ، وهذا أمر قد اشتبه على كثير من المسلمين والمسلمات فاتبعوا فيه نهج الحضارة المعاصرة في بلاد لا تؤمن بالله ، ولا باليوم الآخر ، وتركوا منهج الحق الذي علمنا الله ورسوله ، وأنت ترى كثيراً من المسلمين يسمح لأهله من النساء بأن يبدين زينتهن في الشارع وأمام الأجانب غير المحارم ، مع أن أولئك ونساءهم يقرأون قول الله تعالى ﴿ **وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بني إخوانهن أو بني أخواتهن**

(١) تفسير ابن كثير : ١/ ٣٥١ ط الحلبي .

(٢) حديث صحيح أخرجه البخاري (١٠ / ٢٢١/ ٢٢٢) ومسلم (٢٠٨٨)

أو نسائهن أو ماملكت أيمانهن أو التابعين غير أولى الإربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عوارت النساء ، ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن ، وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون ﴾ (النور : ٣١) .

والبعل هو الزوج وما ملكت الأيمان هم العبيد (وهذا الصنف غير موجود اليوم) وقوله تعالى (أو نسائهن) المقصود به المسلمات ، فلا يجوز للمسلمة أن تنكشف على غير المسلمة ، بل تعامل غير المسلمة في هذا معاملة الرجل الأجنبى ، والرجال غير أولى الإربة هم الذين لا حاجة لهم فى النساء كالأبله والمجنون أو المخنث الذى لا شهوة له إلى النساء ، والزينة التى تظهر للزوج غير التى تظهر للأصناف الأخرى المذكورة فى الآية كما هو معلوم ،و للعلماء رأيان فى الزينة التى تظهر من المرأة ، فالأول : الوجه والكفان فقط ، والثانى : يرى أن الوجه والكفين عورة ، ويوجب النقاب على المسلمة (١) .

فأين نساء المسلمين من ذلك كله ؟ .

ألا ترى إلى أكثرهن فى شوارعنا كاسيات عاريات مائلات مميلات كأسنمة البخت كما وصفهن الرسول ﷺ قبل أن يراهن ؟ ألا ترى إليهن وقد قصرن الثياب إلى الركبتين وضيقنها لتصف ما تحتها ؟ وانحسر الخمار وظهر الشعر والرقبة وبعض الصدر ؟ ألا ترى إلى المساحيق ألواناً تصبغ الوجوه والشفاه ؟ وكلها من مواد كيميائية تصلح العاجل وتفسد الآجل وتعجل بالشيب ؟ ثم إنك ترى بعد ذلك المتنطعين من بنى ملّتنا والمتنطعات يزعمون لك أن هذه هى الحضارة !

ألا إن كانت الحضارة معصية الله ورسوله فلتذهب تلك الحضارة إلى الجحيم !! .

إن زينة المرأة فى ذاتها ليست حراماً ،بل هى مباحة مندوب إليها إذا كانت بين يدى زوجها ، وهى حرام إن كانت أمام الملأ تفتن بها عباد الله .

إن ما تصدره إلينا حضارات الشرق والغرب من مظاهر الخلاعة و العرى التى ملأت علينا حياتنا ليس هو الحق الذى يرضى الله تعالى ، بل لا يرضى إلا الشيطان وأتباعه ، إنه نتاج أعمال المفسدين على مر التاريخ ، فهذا (فرويد) الذى قدّسته حضارة الغرب يقول : إن الإنسان لا يحقق ذاته بغير الإشباع الجنسى ... وكل قيد من دين أو أخلاق أو مجتمع أو تقاليد هو قيد باطل ومدمر لطاقة الإنسان ، وهو

---

(١) انظر تفسير ابن كثير فى تفسيره لسورة النور .

كبت غير مشروع !!» (١) .

وأما أن الإنسان يحتاج إلى الإشباع الجنسى فهذا حق لا ريب فيه ، وأما أن يشبع رغبته بغير ما أحل الله كما يريد فرويد وغيره فهذا هو الضلال المبين ، لقد أحب الغرب فرويد ـ وتلقّف بعض مثقفينا فلسفته ـ لأنه أنزل إليهم المرأة من مكانتها المصونة إلى الابتذال بكل صورة فجعلها عارية على الشواطىء ، شبه عارية فى الشوارع والمصانع ... وجعلها كذلك سلعة للتجارة المربحة بصورها المختلفة ، ثم يأتى هذا كله إلينا فيتقبله المغفلون ! إن ذلك كله ليس المثال الذى نتبعه ، لأن لدينا شريعة من الله ومنهاجاً فمن رضى وتابع فهو منهم ، والمرء يحشر يوم القيامة مع من يحب ، والاتباع أول علامات الحب ، ولقد حذرنا الله تعالى هذا السلوك منذ أربعة عشر قرناً حين قال : ﴿ **ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم ، قل إن هدى الله هو الهدى ، ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم مالك من الله من ولى ولا نصير** ﴾ (البقرة : ١٢٠) ومن هذا القبيل « الزينة التى تحل فى مواضع وتحرم أخرى » الأشياء التى تحرم على الحاج أو المعتمر أثناء قضاء الفريضة ، فلا يُباح للحاج الزواج أو الرفث (الجماع) ولا عقد النكاح لغيره ولا الخطبة ، و لا يأخذ من شعره أو أظافره ولا يتطيب ولا يلبس المخيط من الثياب (الذكور) ولا يغطى رأسه بملا صق ،هذا كله فى حال الحج فحسب لأسباب وأحوال معلومة فرضها الله تعالى ، أما فى غير الحج فكل ذلك حلال مباح فى حدود ما أو ضحنا سابقاً .

جـ الزينة الحرام

وأول مانلاحظ هنا أن هذا النوع من الزينة ورد فى (٢٦) موضعاً فى القرآن ، أى أكثر من نصف المواضع التى وردت فيها المادة فى القرآن وهى (٤٦) موضعاً ، وإن كان ثمة دلالة لهذا فهو أن أكثر الزينة فى هذه الحياة الدنيا ليست وفق منهج الحق الذى أراد الله ، حيث يكثر فى القرآن ذكر تزيين الشيطان لأوليائه أعمالهم ، بحيث تبدو لهم تلك الأعمال حقاً لا ريب فيه ، وخيراً لا خير بعده ، ومن ذلك ﴿ **وإذْ زين لهم الشيطان أعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم ...** ﴾ (الأنفال : ٤٨)

(١) نقلاً عن : الحب والجنس من منظور إسلامى ؛ للأستاذ محمد على قطب ص ١٢٠ .

وذلك حين زين للمشركين أعمالهم ودفعهم إلى قتال المسلمين في غزوة بدر، فهزمهم الله تعالى، ويتكرر ذكر (وزين لهم الشيطان أعمالهم) في مواضع عدة من القرآن، حيث يلبس الشيطان على أتباعه فحيسن أعمالهم في أعينهم ويزينها لهم، وهي بمقياس الله تعالى كالزبد في محط السيل يرغو ثم يذهب ويختفي، وأنت لذلك ترى في عصرنا هذا أفراداً وجماعات ودولاً، أو جمعيات سرية وعلنية، تدعى فعل الخيرات وتقديم المعونات، وليس وراء تلك الأعمال إلا أهداف مرسومة هي السيطرة على الضعفاء وإضلالهم عن طريق الخبز وكبسولة الدواء، وهم لذلك لا يقدمون للشعوب الفقيرة مصنعاً أو معملاً.. وإنما يقدمون بقايا الطعام والأدوية، ولا بأس بإجراء تجارب الأدوية الجديدة في أبدان هؤلاء الفقراء!!

إن شرط العمل الصالح صلاح صاحبه أولاً وأن يكون بنية خالصة لوجه الله تعالى، وكم من أعمال تبدو صالحة لا غبار عليها، ولكن فاعلها لا يثاب عليها، لأنه لم يرد بها وجه الله تعالى، ولهذا قال سليمان عليه السلام في دعائه ﴿ **رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والديّ وأن أعمل صالحاً ترضاه** ﴾ (النمل: ١٩) فنحن هنا نرى قول سليمان (صالحاً ترضاه) أي يشترط لكون العمل صالحاً أن يرضاه الله تعالى، ولهذا كانت المراءاة بالعمل محبطة للثواب ﴿ **فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون. الذين هم يراءون ويمنعون الماعون** ﴾ (الماعون: ٤-٧) وقد جاء عديّ بن حاتم الطائي (المشهور بالكرم) يسأل رسول الله ﷺ عن فعل أبيه وكرمه ورحمته بالفقراء، أيشفع ذلك له عند ربه: فقال: إنما فعل ذلك ليقال قد فعل وقد قيل!! وقد روت السيدة عائشة قالت: قلت يارسول الله: ابن جدعان كان في الجاهلية يصل الرحم ويطعم المسكين، فهل ذلك نافعه؟ قال: لا ينفعه، إنه لم يقل يوماً: رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين »(١).

ذلكم بعض تزيين الشيطان لأوليائه الذين يظنون أنهم يحسنون صنعاً ﴿ **قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً. الذين ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً** ﴾ (الكهف: ١٠٣ - ١٠٤).

وذلكم وعد الشيطان قطعه على نفسه يوم أخرجه الله من الجنة ﴿ **قال رب بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين. إلا عبادك منهم المخلصين** ﴾ (الحجر: ٣٩ - ٤٠)، ولقد استمر هذا التزيين والإغواء من الشيطان سلسلة

(١) حديث صحيح: أخرجه مسلم (٢١٤) من حديث عائشة رضى الله عنها مرفوعاً.

متصلة الحلقات بدأت بتزيينه لابن آدم الأول قتل أخيه ،إلى يومنا هذا الذى يقتل المسلمون فيه بعضهم بعضاً ، ناهيك بما زين لأمم أخرى فجعل بعضهم يعبد الأصنام كما فى البوذية ، وبعضهم يعبد البقر كالهندوس ، وبعضهم يعبد المسيح إذ يجعله إلهاً مع الله ، وبعضهم يعبد الأحبار والرهبان ويسعى فى الأرض بكل ألوان الفساد كاليهود ... إلخ ولنا فى الشيوعية مثل وعبرة ، وهى النظرية التى أسسها دعاتها على الإلحاد ، ثم انهارت سريعاً وركلتها الشعوب بأقدامها بين يوم وليلة لأنها تعارض فطرة الله التى فطر الناس عليها ، وهذا كله بعض تزين الشيطان لأوليائه !

ولا يبعد عنا فى هذا المقام ما أمر الله به رسوله ﷺ و المسلمين ، بألا يغتروا بقوة عدوّهم المادية ، فيدفعُهم ذلك إلى السير فى فلكهم ، فذلك متاع زائل ، وهو نقمة عليهم لا نعمة ﴿ **ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ، ورزق ربك خير وأبقى** ﴾ (طه : ١٣١) .

وخلاصة القول فى الزينة أن ما كان منها بمنهج الله ورسوله ﷺ فهو حق حلال مندوب إليه ، ويثاب المسلم على اتباعه ، وما كان منها من تزيين الشيطان وأوليائه فهو حرام يأثم المسلم باتباعه ، وليس للمسلم خيار فى هذه الحال ، لأن الله تعالى قد اختار له ﴿ **وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم** ﴾ (الأحزاب : ٣٦) .

٤ ـــ الزخرف فى القرآن

وردت مادة (زخرف) فى القرآن فى أربعة مواضع ، وقبل أن نتعرف على تفسيرها ، نعرف أولاً معنى الزخرف فى اللغة .

جاء فى لسان العرب « الزخرف : الزينة ، والزخرف : الذهب ، هذا الأصل ، ثم سُمى كل زينة زخرفاً ، ثم شُبه كل مموه مزور به ، وكل مازوّق وزين فقد زخرف .... والزخرف فى اللغة : الزينة وكمال حسن الشيء » (١) .

وجاء فى مفردات الراغب الأصفهانى « الزخرف : الزينة المزوقة ، ومنه قيل للذهب زخرف » (٢) .

---

(١) لسان العرب مادة (زين) .

(٢)المفردات فى غريب القران : ٢١٢ ط دار المعرفة ـ بيروت .

وأورد هنا المواضع التى ورد فيها هذا اللفظ ، لنصدر عنها بمفهوم قرآنى للزخرف ، قال تعالى .

١ - ﴿ وكذلك جعلنا لكل نبى عدواً شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً ﴾ (الأنعام : ١١٢) .

٢ - ﴿ أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ...﴾ (الإسراء : ٩٣).

٣ - ﴿ ولبيوتهم أبواباً وسرراً عليها يتكئون . وزخرفا ، وإنْ كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا ، والآخرة عند ربك للمتقين ﴾ (الزخرف : ٣٤ - ٣٥) .

٤ - ﴿ حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس ﴾ (يونس: ٢٤) .

وأول ما نلاحظ من سياق اللفظ والظلال التى أحيط بها فى هذه المواضع أنه شىء مكروه ، فهو فى الآية الأولى (زخرف القول) من وحى الشياطين بعضهم لبعض ، وفى الثانية من تصوّر الكفار لما يجب أن يكون عليه بيت نبى تخاطبه السماء ، وفى الثالثة من قول الله إنه لوشاء لجعل للكفار ما ذكرته الآية وفى الرابعة أمر سيحدث قبيل قيام الساعة حين يكثر الزخرف ــ ولنا مع هذه الآية وقفة فى الفصل الأخير ــ وحين تأخذ الأرض زينتها فيأتيها وعد الله .

إن هذه السياقات والظلال تعطى للمرء إحساساً بأن الزخرف شىء مكروه كالزينة الحرام ، ولعل التعريف الذى أوردناه للزخرف من اللغة يساعدنا فى فهم هذا المعنى ، فهو (الزينة المزوقة) التى قد تبدو لأول وهلة جميلة تخلب الألباب ، ولكن وراءها سوء المخبر .

على أننا ينبغى أن ننتبه هنا إلى أن الزخرف ليس مكروهاً لذاته ، وإنما لأن الناس استعملوه بغيرما يوافق منهج الله تعالى فيه ، والمفروض أن يكون (الزخرف) بوصفه متاعاً ورزقاً ، سبيلاً إلى شكر الله تعالى لا للفخر والخيلاء وتشويه الحقائق ، فهو مكروه لما صار إليه وليس لذاته وإلا فإن فى الجنة زخرفاً (ذهباً ومتاعاً) ولكنه هنالك بمنهج

الله تعالى ليس غير .

كانت تلكم نبذة عن الجمال وما فى معناه فى القرآن الكريم ، رأينا فيها تفضّل الله علينا بالجمال ، ومنهاجه الذى سنّ لنا للاستمتاع به ، وللاستفادة به فى معرفة الخالق سبحانه ، ومعرفة أسرار صنعه ، وهكذا يكون الجمال سبيلاً إلى الإيمان ، وليس لأجل متعة عاجلة تزول سريعاً ، فالجمال الحق إذن ـ لمتبعيه ـ طريق إلى الجنة !

الفصل الرابع

دلالات الألوان فى القرآن الكريم

١ – اللون الأبيض
٢ – اللون الأخضر
٣ – اللون الأسود
٤ – اللون الأصفر
٥ – اللون الأحمر
٦ – اللون الأزرق

دلالات الألوان في القرآن الكريم

الألوان هى مادة الفنان التى يصوغ منها حدود لوحته ، وبقدر دقته فى اختيار اللون واستعماله تكون أعماله ذات قيمة جمالية ، واللون فى اللوحة يقوم مقام الصوت فى الأداء الشعرى مثلاً ، أو مقام اللفظ فى الجملة ... ، فكما أننا نتذوق الجملة بتركيبها اللفظى وما فيه من رصف للكلمات ، كذلك نتذوق جمال اللوحة بتناسق ألوانها ، وفى حالات كثيرة فى حياتنا العادية نجد اختيار اللون دليلاً على ذوق صاحبه فى الملبس أو البناء ... الخ .

ونحن لا نتوقع من القرآن أن نجد فيه لوحات مرسومة بالمعنى الفنى للكلمة ، وإنما سنجد فيه ماهو أعظم وأبلغ ، سنجد فيه لوحات من نوع آخر ، هى الغاية فى الدقة والتناسق الفنى ، كما سنرى بعد .

وللقرآن رؤية خاصة فى استعمال الألوان ، نود أن نتعرف على حدودها من خلال نصوص القرآن نفسه ، واللون فيه غير مقصود لذاته ، وإنما للدلالة التى يحملها اللون ويراد نقلها إلى المتلقى ، لتؤدى دورها التأثيرى فيه عقيدة وسلوكاً .

وأول ما يواجهنا هنا لفظ (لون) واستعمالاته فى القرآن الكريم ، فهو يأتى فى تسعة مواضع ، وفى سبعة منها يأتى ذكر اللون لتقرير حقيقة ماثلة للعيان ، يريد القرآن أن يؤكد عليها ويلفت انتباه الناس إليها ، عن طريق تكرارها فى هذه المواضع السبعة ، وهذه الحقيقة هى (اختلاف ألوان المخلوقات) حيث يدعونا هذا الاختلاف إلى التفكر والتدبر فى مخلوقات الله تعالى لفهم أسرار خلقه ، وعظيم قدرته ، فهو خالق كل شىء ، وهو يميز بين كل مخلوق وآخر بأشياء أهمها اللون ، قال تعالى ﴿ ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم ﴾ (الروم : ٢٢) ، فاختلاف ألسنة الناس أى لغاتهم ، واختلاف ألوانهم ـ مع أنهم جميعاً لآدم وحواء ـ أمر يدعو إلى التفكر والتدبر ، وكذلك اختلاف الألوان فى الزروع والثمار والدواب والأنعام ، مع أن الماء الذى يشرب الزرع واحد والتربة واحدة ، ولكن لكل

لون وطعم ، وكذلك اختلاف ألوان عسل النحل ﴿ **يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس** ﴾ (النحل : ٦٩) ، حيث تُخرج النحلة الواحدة عسلاً مختلفاً ألوانه ، وذلك حسب ألوان الأزهار والثمار التي تتغذى عليها ، وذلك أحد أعاجيب النحل ، ونحن نرى الأبقار أو الغنم تأكل نباتاً ذا ألوان شتى ، ولكن اللبن ذو لون واحد لا يتغير ! ثم لننتقل إلى هذه الجبال الرواسي التي ثبت الله بها الأرض من أن تميد بنا ، فقد أعطاها سبحانه ألواناً فيها آيات تدعو إلى التفكر والبحث ﴿ **ومن الجبال جُدَد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود** ﴾ (فاطر : ٢٧) والمعنى أن الله تعالى خلق من الجبال ما فيه جدد (طرائق) بيض وحمر وسود، واختلاف الألوان مدعاة إلى البحث في أسبابه .

ولنا هنا ملاحظة ذات مغزى ، وهي أن الموضع الوحيد الذي تكرر فيه ذكر اختلاف الألوان في ثلاثة مواضع في آيتين ، يأتي بعده تعقيب ذو مغزى ، قال تعالى ﴿ **ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود . ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك ، إنما يخشى الله من عباده العلماء ، إن الله عزيز غفور** ﴾ (فاطر : ٢٧ ــ ٢٧) .

فقد تكرر ذكر اختلاف الألوان في الآيتين ثلاث مرات ، ومعرفة أسرار ذلك أو البحث عنه يجعل صاحبه من العلماء إذا أراد بذلك وجه الله وكان من المؤمنين به ، وهو بهذا يدخل في عداد من يخشون الله (إنما يخشى الله من عباده العلماء) وفي ذلك دعوة صريحة لشباب المسلمين ليخوضوا غمار البحث والتفوق في العلوم (الطبيعية) لكي لا تبقى أمتنا عالة على مكتشفات الغرب في هذه الميادين ، ولأن ذلك يقرب المسلم من فهم أسرار الحياة من حوله ، يقول الزمخشري في تعليله لهذا التعقيب : « فإن قلت : ماوجه اتصال هذا الكلام (إنما يخشى الله من عباده العلماء) (١) بما قبله ؟ قلت : لما قال (ألم تر) بمعنى ألم تعلم أن الله أنزل من السماء ماء ، وعدد آيات الله وأعلام قدرته وآثار صنعته وماخلق من الفطر المختلفة الأجناس ، وما يستدل به عليه وعلى صفاته ، أتبع ذلك (إنما يخشى الله من عباده العلماء) كأنه

---

(١) انظر رسالة « انما يخشى الله من عباده العلماء » للحافظ ابن رجب من اصدارايت دار الصحابة

قال : إنما يخشاه مثلك (أى النبى ﷺ) ومَنْ على صفتك ممن عرفه حق معرفته وعلمه كنه علمه» (١) وفى الموضعين الباقيين من التسعة التى ورد فيها لفظ (لون) نجده مستعملاً فى وصف بقرة بنى إسرائل، تلك التى أمرهم موسى بذبحها، ولكنهم تعنتوا وتشددوا، فشدد الله عليهم، ووصف لهم البقرة حين سألوا عن لونها بأنها ﴿ **صفراء فاقع لونها تسر الناظرين** ﴾ (البقرة : ٦٩)، أى هى بقرة صفراء شديدة الصفرة تسر الناظرين إليها وتعجبهم بجمال لونها.

ثم نأتى إلى الألوان نفسها المختلفة الواردة فى القرآن الكريم، فنجدها مستعملة إما لوصف ظواهر طبيعية بألوانها المعروفة، أو حالة نفسية أو مَرَضية للإنسان، أو يتجاوز استعمال اللون مجرد الوصف الظاهرى ليعطى دلالات إضافية، حيث نجد ـ على سبيل المثال ـ اللون الأبيض يكسو وجوهاً يوم القيامة، ولذلك دلالته، و اللون الأسود يكسو وجوهاً، ولذلك دلالته ... إلخ، وفيما يأتى تفصيل لاستعمالات كل لون فى القرآن على حده، وهى مرتبة حسب كثرة ورود كل منها فى القرآن الكريم.

١ – اللون الأبيض

ورد ذكر اللون الأبيض فى القرآن فى اثنى عشر موضعاً، وهو بهذا أكثر الألوان استعمالاً فيه، واللون الأبيض لون النقاء والصفاء، وهو لون محبب إلى النفس بطبيعته، ولهذا توصف به وجوه المؤمنين يوم القيامة ﴿ **وأما الذين ابيضت وجوههم ففى رحمة الله هم فيها خالدون** ﴾ (آل عمران : ١٠٧)، وفى مقابل هؤلاء نجد أصحاب اللون الآخر ﴿ **فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون** ﴾ (آل عمران : ١٠٦)، والتضاد فى الألوان هنا (الأبيض والأسود) يبرز الصورة أمام الناظرين، ويعطيهم مقياساً (لونياً) يحكمون به على مكانه أصحاب كل لون عند ربهم.

وقد يأتى اللون الأبيض لوصف ظاهرة طبيعية تحدث فى الحياة كقوله تعالى ﴿ **وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر** ﴾ (البقرة: ١٨٧)، والخيط الأبيض هنا هو مقدمات النهار وقرب ظهور الشمس، والخيط الأسود علامة الليل، ومن هذا القبيل أيضاً قوله تعالى ﴿ ومن الجبال

(١) الكشاف : ٦١١/٣.

جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ﴾ (فاطر : ٢٧) .

ويأتي اللون الأبيض في موضع واحد لوصف حالة (مَرَضية) وهي بياض العين من الحزن ، وذلك في قوله تعالى عن يعقوب عليه السلام ﴿ **وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم** ﴾ (يوسف : ٨٤) ، حيث يصف القرآن ما أصاب يعقوب من الحزن وكثرة البكاء حتى ابيضت عيناه لفقد ولده يوسف .

وفي خمسة من المواضع المذكورة يأتي لفظ (بيضاء) صفة للمعجزة التي أعطاها الله تعالى نبيه موسى ليذهب بها إلى فرعون وقومه ، وهي (يده) التي ماإن يدخلها في جيبه حتى تخرج بيضاء من غير سوء (مرض أو سحرٍ) وكانت معجزة اليد واحدة من تسع معجزات أعطاها الله موسى .

وفي موضعين نجد اللون الأبيض لوناً من ألوان الجنة المحببة إلى النفس :

١ - ﴿ **يُطاف عليهم بكأس من معين . بيضاء لذة للشاربين** ﴾ الصافات : (٤٥ ـ ٤٦) ، وهذا وصف للكأس التي يشرب بها المؤمنون في الجنة ، فهي كأس بيضاء شرابها ولونها ، والبياض لون الفضة ، فلعلها أن تكون من فضة ، وهي مليئة من خمر الجنة التي لا تسكر ولا تغتال العقول ﴿ لا فيها غَوْلٌ ولا هم عنها ينزفون ﴾ (الصافات : ٤٧) .

٢- وفي السورة نفسها نقرأ ﴿ **وعندهم قاصرات الطرف عين . كأنهن بيض مكنون** ﴾ (٤٨ ـ٤٩) ،واللون الأبيض مستعمل هنا لتقريب صورة لم يرها أهل الجنة بعد ، وهي جمال نساء الجنة وبياض ألوانهن ، وأقرب شبه للونهن ـ مع الفارق ـ لون البيض النقي المكنون الذي لم يتغير لونه ولم تغيره الرياح بالتراب .... وهذا اللون (الأبيض) هو أحب ألوان النساء إلى الرجال ، إضافة إلى ما يوحي به من النقاء والطهر والصلاح ... ولذلك كله جعله الله تعالى صفة لنساء المؤمنين في جنات النعيم ، ثواباً من عند الله ، والله عنده حسن الثواب .

٢ - اللون الأخضر

ورد ذكر اللون الأخضر في ثمانية مواضع في القرآن الكريم ، واللون الأخضر أكثر الألوان راحة للنفس والعين وهو رمز الحياة ، ووجوده في مكان ـ طبيعياً ـ دليل على

وجود الحياة فى ذلك المكان ، لأنه تبع لوجود الماء ومن الماء جعل الله كل شيء حي ، وهذا اللون يستعمل لوصف أشياء فى الدنيا والآخرة .

فمن آيات الله فى الدنيا أن جعل لنا ﴿ **من الشجر الأخضر ناراً** ﴾ (يس : ٨٠) ، والإنسان يرى هذه الظاهرة أمامه وهو يستعمل الشجر فى الوقود ، والمفروض أن يدعوه ذلك إلى التفكر ، إنه مهدد أن يصبح كهذا الشجر تماماً ـ وقوداً للنار ـ إذا أعرض عن منهج الله تعالى ، وذلك كما قال سبحانه ﴿ **يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة** ﴾ (التحريم : ٦) .

واللون الأخضر أيضاً أساسي فى تكوين الثمار ﴿ **وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء ، فأخرجنا منه خضراً نخرج منه حباً متراكباً** ﴾ (الأنعام : ٩٩) ، فالضمير فى (منه) يعود على النبات أى يخرج الله من النبات هذه المادة (خضراً) وهى بدورها يخرج منها الحب المتراكب .

وفى آية أخرى يمّن الله على عباده بأن أنزل لهم من السماء ماء ﴿ **فتصبح الأرض مخضرة** ﴾ (الحج : ٦٣) وفى اخضرار الأرض حياة لأصحابها ، يأكلون ويتمتعون هم وأنعامهم .... وذلك أدعى إلى شكر نعمة الله تعالى .

وفى قصة يوسف يرد لفظ (خُضُر) مرتين فى وصف السنبلات اللاتى رآهن الملك في رؤياه ، وحين نأتى إلى تعبير الرؤيا ـ كما أولها يوسف عليه السلام ـ نجد اللون الأخضر علامة على الحياة الرغيدة ، إذ هو علامة على السنوات السبع اللاتى سيزداد فيهن الخير ، فى مقابل السبع العجاف اللاتى يقل فيهن الخير ويرمز لهن بالسنبلات اليابسات ، فاللون الأخضر إذن دال على الحياة وكثرة الخيرات .

ولنلق الأن نظرة إلى الجنة من خلال آيات القرآن ، والجنة يغلب عليها اللون الأخضر من بين الألوان جميعاً ، ففيها أشجار وأنهار وقصور ... الخ ، والأشجار العالية الباسقة هنالك تحيل لون الجنة إلى اللون الأخضر ، ذلك الذى يريح النفس والعين ... وليس هذا فحسب ، بل إن ثياب المؤمنين هنالك تأخذ هذا اللون المريح أيضاً ﴿ **يلبسون ثياباً خضراً من سندس وإستبرق** ﴾ (الكهف : ٣١) .

والمؤمنون هنا لك فى نعيم مقيم ، ومنه ذلك الحرير الأخضر بأنواعه (السندس

والإستبرق) ، وهم هنالك أيضاً مع الحور المقصورات في الخيام ، اللاتى لم يطمثهن إنس قبلهم ،لا جان ، يجلسون ﴿ متكئين على رفرف خُضْرٍ وعبقرى حسان ﴾ (الرحمن : ٧٦) ، والرفرف نوع من البسط أو الوسائد المريحة ، وهى مع راحتها ذات لون أخضر ، والعبقرى الشيء العجيب الحسن .

وخلاصة القول أن في اللون الأخضر دلالة على الحياة الرغيدة الناعمة والنعيم ، ولذلك يمتع الله به عباده في الآخرة ، وفي مقابله نكاد نرى ذلك اللون المخيف ، لون النار (الأحمر) الذى هو علامة على النار والعذاب ، و هو وإن لم يذكر صراحة فى وصف النار ، فإنه من لوازمها .

٣ – اللون الأسود

ورد ذكر اللون الأسود فى سبعة مواضع فى القرآن الكريم وهو على ثلاثة معان

١ – وصف ظواهر طبيعية ، ومنه الخيط الأسود وألوان الجدد (الطرائق) في الجبال ، وقد سبق الحديث عن ذلك .

٢ – وصف أحوال نفسية ظاهرة ، ومن ذلك :

ا – ﴿ وإذا بُشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم ﴾ (النحل : ٥٨)

ب - ﴿ وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلاً ظل وجهه مسوداً وهو كظيم﴾ (الزخرف : ١٧)

وفى الآيتين نجد وصفاً لجهالات بعض العرب قبل الإسلام ، حيث كانوا يفضلون البنين على البنات لأسباب اقتصادية واجتماعية معروفة ، وكانوا لجهلهم يغضبون ويحزنون إذا بشر أحدهم بالأنثى ، وربما يئدها كما وصف الله تعالى ﴿ وإذا الموءودة سئلت ، بأى ذنب قتلت ﴾ (التكوير : ٨-٩).

وهنا نجد وصفاً للحالة النفسية التى تصيب المبشربالأنثى ، فهو أسود الوجه ، وهو كظيم ، وسواد الوجه علامة على الحزن الشديد أو الغضب ، فاللون هنا دال على الحالة النفسية التى وصل إليها صاحبه ، ذلك الذى يظل أياماً يفكر –

وهو يتوارى عن القوم ـ فيما بُشربه ﴿ أيمسكه على هو ن أم يدسه فى التراب؟ ! ﴾ (النحل : ٥٩).

٣ - وصف أحوال أهل النار يوم القيامة :

فى ذلك اليوم العصيب ، وفى ساحة الحشر التى يجمع الله إليها الأولين والآخرين للحساب ، نرى الوجوه على ألوان ، فمنها الأبيض ومنها الأزرق ـ كما سنرى ـ ومنها الأسود ، وأنت حين تجيل الطرْف هنا لك ترى ـ دون الحاجة إلى معرفة الأسماء والألقاب ــ وجوهاً سوداء ، وكفى بذلك علامة لها ! وأولئك ينادون تبكيتاً وتقريعاً ﴿ أكفر تم بعد إيمانكم ؟ فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ﴾ (آل عمران : ١٠٦) ، وهم معروفون هنا لك إذن بوجوههم السوداء ﴿ ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة ﴾ (الزمر : ٦٠) وهم إلى سواد وجوههم فى ساحة الحشر ، سيزدادون سواداً حين تلفح وجوههم النار فتفعل فعلها فى الوجوه والجلود التى ستبدل كلما أنضجها حر النار !! أعاذنا الله من النار .

٤ - اللون الأصفر

ورد ذكر اللون الأصفر فى خمسة مواضع فى القرآن الكريم ، الأول منها فى وصف بقرة بنى إسرائيل وقد سبق ، والثانى والثالث والرابع فى وصف ظواهر طبيعية يراها الناس فى حياتهم وهى :

١ - قال تعالى ﴿ ولئن أرسلنا ريحاً فرأوه مصفراً لظلّوا من بعده يكفرون ﴾ (الروم : ٥١) وفي هذه الآية يخبرنا المولى سبحانه أن الكفار لا يشكرون الله فى أي حال ، فالله تعالى يحيي الأرض بعد موتها ، وإذا أراد اختبار الناس ليريهم أيشكرون أم يكفرون ، أرسل على نباتهم ريحاً فضرب زرعهم فجعله أصفر ، فإذاهم لذلك يضجون ويكفرون بنعمة الله ، وكان الواجب عليهم الصبر لأمر الله تعالى ، ولكنهم يكفرون ، فاللون الأصفر هنا يصف ظاهرة طبيعية ، وهى يُبس النبات وموته .

٢ - قال تعالى ﴿ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع فى الأرض ثم يخرج به زرعاً مختلفا ألوانه ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يجعله حطاماً ، إن فى ذلك لذكرى لأولى الألباب ﴾ (الزمر : ٢١) .

إن ذوى الألباب يجدون فى هذا مثلاً لحياة الناس كذلك ، فهى تشبه حياة النبات من وجوه ، ففى النبات ينزل الله الماء فيخرج به الزرع بألوانه المختلفة ، ثم يهيج الزرع فيراه الناس بعد الخضرة والجمال أصفر يابساً ،ثم يكون حطاماً بعد ذلك ، وهذا يشبه مراحل وجود الإنسان على الأرض كذلك ، ولكن النبات المسبح بحمد ربه ليس له عودة إلى الحساب يوم القيامة ، والإنسان والجان يعودان إلى الله للحساب ، فهما كانا مخيرين فى الدنيا ، وهما يحاسبان على اختيارهما ذلك .

٣ – قال تعالى ﴿ **اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد ، كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطامًا ، وفى الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان ، وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور** ﴾ (الحديد : ٢٠)

والله سبحانه وتعالى يؤكد هنا على قضية مهمة ، وهى أن الحياة الدنيا لعب وزينة وتفاخر وتكاثر ...... ويضرب لذلك كله مثلاً – والأمثال لا يعقلها إلا العالمون – وذلك المثل هو أن الحياة الدنيا تشبه غيثًا أنبت نباتا حسنا فأعجب الكفار ، ولكن ذلك لا يطول بهم ، فها هو النبات – كما هى حيواتهم – يهيج فتراه (مصفرا) ذلك اللون الدا ل على الضعف وقرب النهاية ، وهى مقدمة للحطام (الموت) ثم ينتقل السياق بنا إلى اليوم الآخر لنجد الدين تغافلوا عن مغزى المثل لهم (عذاب شديد) والذين فهموه وعملوا للدار الآخرة لهم (مغفرة من الله ورضوان) .

أما الموضع الخامس الذى ذكر فيه اللون الأصفر ، فهو وصف لمشهد من مشاهد النار – أعاذدنا الله منها – يقول تعالى ﴿ **إنها ترمى بشرر كالقصر . كأنه جمالة صفْر** ﴾ المرسلات : (٣٢ – ٣٣) ، فهذا مشهد عجيب من مشاهد النار يهز القلوب هزاً ، إن النار ترمى ساكنيها وتستقبل داخليها بشرر كأنه القصر (الشجر الغليظ) وكأنه جمالة صُفْر، أى أن الشرارة الواحدة فى حجم الجمل الأصفر ، واللون هنا وصف للجمال ، والجمال وصف للشرر الذى هو بعض ما يتطاير من النار ، فما بال النار التى يصدر عنها الشرر المتطاير فى حجم جذوع الأشجار الضخمة أو فى حجم الجمل الضخم ؟؟

٥ – اللون الأحمر

ورد اللون الأحمر بلفظه فى موضع واحد هو قوله تعالى ﴿ **ومن الجبال جدد بيض**

وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ﴾ (فاطر : ٢٧) ، وهذا وصف لظاهرة طبيعة يراها الناس ، والمتأمل فيها يعلم بعضاً من قدرة الله تعالى ، فهذه الجبال من تراب وصخور ومعادن .... ولكنا نجد فيها جُدَداً (طرائق) بيضاً وحمراً وسوداً ، وذلك صنع الله الذي أتقن كل شيء ، واللون الأحمر ظِلٌ ملازم للنار ، فهو هنالك لوم أساسي وهو عذاب لأهل النار .

وورد اللون الأحمر بصفته في موضع ثانٍ في وصف مشهد من مشاهد القيامة . قال تعالى ﴿ فإذا انشقت السماء فكانت وردْة كالّدهان ﴾ (الرحمن : ٣٧)

والورد هنا يعني اللون الأحمر ، جاء في اللسان : قال الزجاج في قوله تعالى ﴿ فكانت وردة كالدهان ﴾ أى صارت كلون الورد ، والورد يتلون فيكون فى الشتاء خلاف الصيف ، وأراد أنها تتلون من الفزع الأكبر ، كما تتلون الدهان المختلفة » (١) .

وفى المفردات : وقيل (وردة) فى صفة السماء إذ احمرت احمراراً كالورد أمارة للقيامة »(٢) .

وهذا مشهد عجيب من مشاهد القيامة – وقانا الله أهوالها – حيث تنشق السماء فيكون لونها لون الورد الأحمر ، ولعلنا نرى هذا اللون لقرص الشمس قبيل الغروب بلحظات ، وقد ملأ الأفق الغربى كله باللون الأحمر ، فكيف إذا كانت السماء كلها بهذا اللون ؟ واللون الأحمر هنا لون الفزع والخوف ، ذلك الذى يصيب كل المخلوقات يوم القيامة إلا مَنْ أعطاه الله الأمان من تلك الأهوال ﴿ يا عباد لاخوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون ﴾ الزخرف : ٦٨ .

٦– اللون الأزرق

ورد اللون الأزرق فى موضع واحد هو قوله تعالى ﴿ يوم ينفخ في الصور ونحشر المجرمين يومئذ زُرْقاً ﴾ (طه : ١٠٢) قال الزمخشرى فى تفسير لون الزرقة هنا : « قيل فى الزَرَق قولان ، أحدهما : أن الزرقة أبغض شيء إلى العرب من ألوان العيون ، لأن

(١) اللسان : (ورد) .
(٢) المفردات ص : ٥٢٠ .

الروم أعداؤهم وهم زرق العيون ، ولذلك قالوا في وصف العدو أسود الكبد أصهب السبَال (١) أزرق العين .

والثاني : أن المراد العمى لأن حدقة من يذهب نور بصره تزارقّ » (٢) . ومخاطبة القرآن العرب بمعهود أحوالهم وتصوراتهم أمر معروف ، وذلك كتشبيه ثمار شجرة الزقوم برؤوس الشياطين ﴿ **إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم . طلعها كأنه رؤرس الشياطين** ﴾ (الصافات : ٦٤ — ٦٥) ، والعرب لم تر الشيطان أو الجن ، وإنما لأن أمره يهولهم وصورته في عقولهم كريهة منفرة ، خاطبهم القرآن بمعهود تصوراتهم وأحوالهم ، وقد قال امرؤ القيس :

أيقتلُني والمشْرَفيُّ مُضاجعي　　　　ومسنونة زرق كأنياب أغوال ؟

فقد شبه أسنان حربته أو سلاحه بأنه يشبه أنياب الأغوال ، والعرب لم تر الغول قط ، وإنما إمتلأت بذكره أساطيرهم وأسمارهم ، فتوهموا له صورة كريهة .... وعلى ذلك يمكن تفسير زرقة الوجوه أوالأجسام هاهنا .

وأيا ما كان التفسير ، فإن المراد تصوير حال هؤلاء المجرمين ، فهم حين يخرجون من الأجداث إلى ساحة الحشر يكونون (زرقا) وذلك اللون يوحي بأن لأصحابه شأناً مهينًا ، ثم مع تقدم مراحل الحساب تراهم كما وصفهم القرآن في موضع آخر (وجوههم مسودة) وهكذا بين الزرقة والسواد تتشكل ألوان القوم ، وتكون الألوان — من بين علاما ت أخرى كثيرة — دالة على أحوال أصحابها ومصائرهم .

وخلاصة القول في الألوان في القرآن أن لها وظائف ودلا لات بليغة كما رأينا في مواضعة ، وهي بما لها من تأثير على العين ، تساعد على نقل الصورة المرئية كاملة إلى العقل ، بما فيها من رموز ودلالات .

---

(١) في اللسان : السبَلة عند العرب مقدم اللحية وما أسبل منها على الصدر ... ويقال للأعداء : هم صهب السبال » ومعناه على ذلك أنهم حمرٌ شعورُ لحاهم ، انظر : اللسان (سبل) .
(٢) الكشاف : ٨٧/٣ .



الفصل الخامس

لوحات قرآنية

اللوحة الأولى : الفقراء المتعففون
اللوحـــة الثانية : لوحة الإبل
اللوحـــة الثالثة : صاحب الجنتين والمؤمن
اللوحة الرابعـــة :زخرف الأرض
اللوحة الخامسة : مشهد من البعث
اللوحة السادسة : حوار فى ساحة الحساب
اللوحـــة السابعة : مشهد من الجنة
اللوحـــة الثامنة : مشهد من النار .

لوحات قرآنية

لقد أبدع القرآن فى رسم لوحات فنية (من نوع خاص) تخاطب الفطرة الإنسانية خطاباً مباشراً ، لأن الذي صورها (المصور سبحانه) هو الذى خلق الإنسان وفطره ويعلم ما ينفعه وما يضره ، وهو يرشده إلى الخير وينهاه عن الشر ، وهو سبحانه يريد أن يبنى لعبده ذلك الحس الجمالى السليم فخلق له فى الأرض ما خلق ، ثم علمه فى القرآن كثيراً من العلم ، ومن طرق التعليم فى القرآن « التصوير » .

يقول سيد قطب رحمه الله : « التصوير هو الأداة المفضلة فى أسلوب القرآن ، فهو يعبر بالصورة المحسة المتخيلة عن المعنى الذهنى ، والحالة النفسية ، وعن الحادث المحسوس والمشهد المنظور ، وعن النموذج الإنسانى والطبيعة البشرية ، ثم يرتقى بالصورة التى يرسمها فيمنحها الحياة الشاخصة أو الحركة المتجددة ، فإذا المعنى الذهنى هيئة أو حركة ، وإذا الحالة النفسية لوحة أو مشهد ، وإذا النموذج الإنساني شاخص حى ، وإذا الطبيعة البشرية مجسّمة مرئية » (١) .

وأنت حين تصفو نفسك وعقلك وقلبك للقرآن ، وتخطو خطواتك الأولى نحو استلهام الجمال منه ، عليك إذن – ليكون بناؤك سليماً – أن تترك وراء ظهرك كثيراً – إن لم يكن الكلُّ – مما تسمع وترى من أصحاب الفنون (التشكيلية) على أنواعها ، وما آلت إليه من تخريف وتضليل ، ولا يغرنك فى شيء تفلسف أصحاب الريش المائعة الذين فقدوا الحسن الجمالى ، وكذلك أصحاب (الأصنام) الذين يتعبدون إلى جوار أصنامهم ليالى وأياماً ، يعيدون إلى الناس غُثاء الجاهلية الذى أكرمنا الله بالنجاة منه !!

ولا يروعنَّك أن يكون القوم أصحاب أقلام وصحف ومجلات وسلطان ينشر فى الناس أباطيلهم ، إن هذا كله لن ينجيهم من طائلة العقاب الذى حذرهم منه رسول الله ﷺ فقد روى الإمام مسلم من طريق أم المؤمنين عائشة قالت : دخل عليّ رسول الله ﷺ وإنا متسترة بقرام (ستار رقيق) فيه صورة فتلون وجهه ثم تناول الستر فهتكه ثم قال : إن من أشد الناس عذاباً يوم القيامة الذين يشبهون يخلق الله » (٢) وفى حديث آخر

---

(١) التصوير الفنى فى القرآن ص : ٣٤ ، ط ٨ دار المعارف .

(٢) صحيح مسلم : ١٤/ ١٨٨ .

« إن أصحاب هذه الصور يعذبون (يوم القيامة) ويقال لهم أحيوا ما خلقتم ، ثم قال إن البيت الذى فيه الصور لا تدخله الملائكة » (١) .

وهذه الأحاديث واردة فى الصور المنقوشة على القماش كما هو واضح من السياق ، إذ لم يكن ثَمَّ وجود للتماثيل والأصنام فى بيوت المسلمين إذ ذاك ، أما اليوم فأنت أعلم بما صار إليه الحال ، على أننا يجب أن نذكر هنا أن ابن عباس قد أباح قديماً تصوير الشجر ومالاروح فيه ، وأن فقهاء عصرنا أباحوا - حسب قواعد الضرورة - تصوير ما لابد منه فى معاملات الناس ... الخ

ولست أخفى ولا حتى أخجل من القول أننى ، و أنا رجل عربى مسلم ، تعلمت العربية وقرأت القرآن ، وقرأت من تراث المسلمين ما قرأت ، وقد وصلت إلى الثالثة والثلاثين من العمر ، أقول إننى رغم ذلك كله أحاول أن أُعمل فكرى وشعوري وأن أُسكت نداء الفطرة قليلاً ، لأفهم أو أحس شيئاً من تلك اللوحات (التشكيلية) أو ما عساه أن يكون فى ظلال التماثيل والأصنام أو ما يشبهه فى ميادين أخرى كالشعر (الحرّ) الذي انتشرانتشار الجرب فى البعير فأفرد لايمسُّه أحد ، فلا أخرج بطائل ثم أعود لأبحث عن منابع ذلك كله لأجده قد شرب حتى ثمل من مياه الغرب والشرق الكَدِرة الآسِنة ، فجاء الطلع كأنه رؤوس الشياطين !! .

ولوأن القوم اهتدوا بهدى الله ورسوله وميراث الأجداد ، لهداهم الله إلى الحق ، ولما أفسدوا على الناس أذواقهم وفطرتهم بهذا السخف الذى لايستحق ما يثار حوله من ضجيج مفتعل ، ورغم ذلك كله فإن الفطرة الإسلامية السليمة المسلمة قد تركت ذلك كله وراء ظهورها ، ورحنا نسمع شكوى القوم المريرة من أن الناس (الجهلاء !) لا يقدّرون الفن والشعر الرفيع ! والناس من ذلك براء .

ثم لنعد إلى كتابنا الخالد ولوحاته - التى هى بعض إعجازه - لنجد فى لوحاته جمالاً يشبع الفطرة السلميه التى تريد أن تفهم الكون والحياة ، وتستلهم الجمال الإلهى فى الخلق والتصوير ، واللوحة فى القرآن غير مقصودة لذاتها ، وإنما

---

(٢) نفسه : ١٤/ ٩٠ ، وانظر رسالة « بيوت لا تدخلها الملائكة » من إصدارات دار الصحابة.

لما وراءها من إثارة لعقل الإنسان وشعوره ليدرك المعنى المراد منها ، ليصل بذلك في النهاية إلى معرفة بعض نعمة الله عليه وإبداع الله فى خلقه ، فيزداد بذلك إيماناً بالله تعالى .

واللوحة القرآنية تمتاز بأنها حية متحركة نابضة ترضى العقل والقلب وتشبع الذوق السليم ، وتمتزج فيها العناصر المكونة امتزاجاً بديعاً ، بحيث يؤدى كلُ عنصر وظيفته في السياق فى انسجام تام يجعل جمال اللوحة يتسرب إلى نفس المتلقى ، فتؤدى ـ حسب استعداد المتلقى ـ الغرض المطلوب على أكمل وجه .

وأنا أختار هنا نماذج للتمثيل فحسب خوف الإطالة ، مع الاختصار فى التحليل ، ومع التركيز على إظهار الجوانب الجمالية فى استعمالات الألفاظ والتراكيب ، تلك التى تقوم فى اللوحة القرآنية مقام اللون فى غيرها ، بحيث يؤدى كل حرف وكل لفظ وكل تركيب دوره بدقة لا نجدها فى غير هذا الكتاب المعجز ، ومعنا هنا ثمانى لوحات قرآنية ، أربع منها فى الدنيا ، وأربع فى الآخرة ، أسال الله تعالى التوفيق فى بيان بعض ما فيها من جمال خالد .

اللوحة الأولى

الفقراء المتعففون

قال تعالى ﴿ **للفقراء الذين أحصروا فى سبيل الله لا يستطيعون ضَرْباً الأرض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافاً ، وما تنفقوا من شيء فإن الله به عليم** ﴾ (البقرة : ٢٧٣).

انظر الآن إلى هذه اللوحة البليغة التى تثير فى نفس المؤمن كوامن الخير ، وتحضّه على التعرف على أحوال إخوانه من المسلمين الفقراء .

وقد ورد قبل هذه الآية آيتان تحضّان على إعطاء الصدقات سراً وجهراً ، وتحثان على الإنفاق فى سبيل الله ، ثم تأتى هذه الآية الكريمة التى نزلت فى (أهل الصُفَّة) والفقراء من المسلمين الذين تركوا ديارهم وأموالهم وأهليهم وهاجروا فى سبيل الله إلى المدينة ليكونوا مع الرسول ﷺ ، وهى وإن نزلت فيهم خاصة ، فهى عامة ، لأن العبرة بالعموم لا بخصوص الحال ، وهؤلاء الكرام كانوا فى قومهم أعزة كراماً ذوى أهل ومال ثم فضلوا الله ورسوله على ما سواهما ، ثم هم فى المدينة قد حبسوا أنفسهم على الجهاد فى سبيل الله ، ولا يستطيعون السعى فى الأرض للبحث عن الرزق ، إذ لو أرادوا ذلك لبقوا فى أهليهم منذ البداية ، وهم ــ لعزة نفوسهم ــ لا يسألون الناس شيئاً ، بل يظهرون ــ مع فقرهم ــ أغنياء يتعففون عن سؤال الناس ، لذا يحسبهم الجاهل بأحوالهم وسيرتهم أغنياء بسبب ذلك التعفف وعزة النفس ، أما المؤمن المتفرّس فيعرف حالهم بسيماهم ، أى بعلامات خاصة لهم ، لا يعرفها إلا أصحاب الفراسة من المؤمنين ، وفى وصف هؤلاء ورد الحديث المتفق عليه « ليس المسكين بهذا الطوّاف الذى ترده التمرة والتمرتان واللقمة واللقمتان والأكلة والأكلتان ، ولكن المسكين الذى لا يجد غنى يغنيه ، ولا يُفطَن له فيُتصدق عليه ، ولا يسأل الناس شيئاً » .

وهذه الصورة القرآنية تحفز المسلم الفطن حفزاً إلى التعرف على أحوال إخوانه المسلمين فيعرف المستحق منهم للعون ، فيعطيه الصدقة سراً ــ وهو الأفضل ــ أو جهراً

إن كان فى ذلك مصلحة عامة كحفز غيره على الإنفاق مثلاً .

وفراسة المؤمن التى تقوده إلى التعرف على هؤلاء تتضح من قوله تعالى ﴿ **تعرفهم بسيماهم** ﴾ وفى تفسير ابن كثير « وقوله تعرفهم بسيماهم أى بما يظهر لذوى الألباب من صفاتهم ، كما قال تعالى ﴿ **سيماهم فى وجوههم** ﴾ وقال ﴿ **ولتعرفنهم فى لحن القول** ﴾ وفى الحديث الذى فى السنن « اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله ، ثم قرأ (**إن فى ذلك لآيات للمتوسمين**) (١) .

ولكى تؤدى الآية « اللوحة » الغرض المطلوب على أكمل وجه ، جاء معْمارها اللفظى مساعداً على ذلك ، وهو لون من ألوان الإعجاز البلاغى للقرآن ، والألفاظ هنا هى التى تحدد حدود اللوحة .

وتبدأ الآية بقوله تعالى (للفقراء) ولم يذكر (الصدقات) وهى المبتدأ المحذوف وخبره شبه الجملة (للفقراء) وحذفُ المبتدأ هنا لا يُشعر هؤلاء الكرام ـ وكانوا ذوى مال ـ أنهم أصبحوا من المتصدق عليهم فتحزن نفوسهم ، وفى ذلك مراعاة لمشاعرهم ، ثم حددت الآية سبب فقرهم وأنه بسبب حصْرهم فى سبيل الله وعدم تفرغهم للسعى وطلب الرزق ، وقوله (فى سبيل الله) يُشعرهم بالعزة لأنه لا سبيل أفضل منه ، ثم فى تصوير تعففهم الذى يجعل كثيراً من الناس يجهل أحوالهم ، وفى اختيار لفظ(الجاهل) بما له من ظلال ، دلالة خاصة ، فهو فى سياقه هنا بمعنى (الجاهل) بأحوال هؤلاء ، ولكن اختيار اللفظ ذاته يُحمّل صاحبه المسؤولية ويقترب به من ساحة الجهل بمعناه العام ، وهو ما يجدر بالمسلم أن ينأى عنه !

ورغم عزة النفس ومحاولات التستر ، و التعفف الذى يتحلون به ، فإن لهؤلاء الكرام سمات خاصة يعرفها أهل الفطنة ، ثم هم لا يسألون الناس (شيئاً) والمفعول به للفعل (يسألون) محذوف وتقديره (شيئاً) وهو محذوف لأنه فى الأصل غير موجود ؛ إذْ لا وجود للسؤال نفسه !! وقوله (إلحافاً) مفعول مطلق لفعل وفاعل محذوفين للغرض نفسه ، لأنهم لم يسألوا فيلحفوا إلحافاً ، وفى المجىء بالمُنفَق فى صورة (ما) فى قوله (وما تنفقوا) بلاغة جليلة ، إذْ لم يحدد نوع المنفق وإنما أبهمه لبيان أن

---

(١) تفسير ابن كثير : ١/٣٢٤ .

أولئك الفقراء يحتاجون إلى أى شىء يغنيهم ذل السؤال ، حيث كان أكثرهم يقيم في الصفة إلى جوار المسجد ، بلا بيت أو أهل أو مال .... .

وهذا المعمار المعجز من التركيب اللغوى ، الذى لم نأت إلا بالقليل من أسراره ، هو بمثابة الألوان الزاهية التى تريح العين والنفس فى الطبيعة المرئية ، والمعنى الذى وراءه هو بمثابة الثمر والمنافع التى يجنيها الناس منها ..... وهو قد أدى الغرض المطلوب فى رسم اللوحة القرآنية الخالدة ، فأىّ جمال إذن يفوق هذا ؟ !!

٢ - اللوحة الثانية

لوحة الإبل

قال تعالى ﴿ **أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت** ﴾ (الغاشية : ١٧) .

يطلب الله تعالى من الناس أن ينظروا إلى الكيفية التى خُلقت بها الإبل ، ولذا يبدأ هذا الطلب بصيغة الاستفهام الإنكارى (أفلا ينظرون) وهو أفضل صور الحث على العمل ، والنظر هو إعمال البصر والعقل و القلب للوصول إلى الحقيقة .

ولكن ما حدود هذه اللوحة ؟ ولماذا الإبل ؟

الحد الأول من اللوحة هو الأرض الممتدة أمام نظر العربى الذى خوطب بالقرآن أولاً ، بما فى أرضه من المراعى والصحارى التى تعيش فيها الإبل ، والإبل جمع لا واحد له من لفظه ، ومفرده من غير لفظه جمل وبعير ، والجمل هو الحيوان الذى لا يغيب عن العربى فى حله وترحاله ، بل يبيت معه فى داره أو أمام خيمته ، ولقد صاحَبَ الجملُ العربيَّ آلاف السنين فى جزيرته تلك ، وقامت بينهما علاقة وصداقة من نوع خاص ، وقد أنتج ذلك كله لونًا خاصاً من ألوان أشعارهم يختص بوصف الإبل والحديث عنها ، ومنه على سبيل المثال معلقة طرفة بن العبد الشاعر الجاهلى ، التى تحدث فيها عن ناقته أكثر مما تحدث عن نفسه !! وذلك كله مما لا يتوفر لأدب آخر فى هذه الأرض .

والجمل ذو فوائد جمة للإنسان ، وخصوصاً للعربى فى صحرائه الواسعة هنا لك ، فهو يركبه ويحمل عليه أثقاله و يأكل لحمه ويشرب لبن النوق ، ويغزل الوبر خياماً

ولباساً ، ويكتب على عظامه ...فهو إذن أقرب المخلوقات من غير جنسه إليه ، أفلا ينظر إليه ليعرف أسرار قدرة الخالق سبحانه ؟

والحدّ الآخر من اللوحة ها هنا في عالم اليوم ، في مختبرات العلماء ، الذين وجدوا في الجمل كثيراً من العجائب .

إن الناظر إلى الجمل لا يجد للوهلة الأولى ذلك الجمال الذى نحاول استخلاص بعض معالمه هنا !! فمع ضخامة الجسم وغرابة الحركة والسير ، ومع الغموض الذى يلف الجمل والصمت المطبق إلا من أصوات مخيفة أحياناً ، إلى الرهبة التى يثيرها فى نفس الناظر إليه .. كل ذلك قد يوحى بعدم الاطمئنان إليه بادئ الأمر ! وتلك نظرة عَجْلى لا ريب ، وإذا لم يكن من الجمل إلا منافعه التى يؤديها للإنسان ، لكفاه أنه أدى وظيفته التى سخّره الله لها ، وهى خدمة الإنسان ، وحَسْبُ الإنسان أن يكون مثله فيؤدى الوظيفة التى خُلق لها وهى عبادة الله الذى يعبده كل شىء إلا الكفار بطبيعة الحال .

فما مظاهر الجمال إذن فى خلق الإبل (١) ؟

إن الجمل أعجوبة فى الهندسة التشريحية ، حيث إن وظيفته تتلاءم مع طبيعته ، وطبيعته التى خُلق عليها تؤهله تماماً لأداء المهمة التى يؤديها ، وهى عادةً التنقل فى الصحراء ، وهو فى ذلك يتفوق على أحدث أنواع السيارات !

وكل ما فى الجمل متقن الخلق للتكيف مع البيئة القاسية التى يعيش فيها ، وأهم ذلك باختصار :

١ – العينان ذواتا رموش كثيفة مزدوجة تحجب عنهما الرمال المتطايرة ، ويمكن للجمل إغلاق منخريه وأذنيه كذلك إذا هاجت الرمال !

٢ – الأخفاف الضخمة التى تنبسط على الأرض تمنع الجمل من أن تغوص أقدامه فى الرمال مع أن وزنه عادة بين (٤٠٠ إلى ٥٠٠ كجم)

---

(١) ننقل بعض المعلومات هنا عن مجلة المختار عدد يناير ١٩٨٠ ص : ٩ وما بعدها ، وكذلك مجلة عالم الفكر الكويتية مج : ١٢ ، ع : ٤ ، ص : ٩٢ وما بعدها ، مع تصرف فى الصياغة .

٣ – شفتا الجمل مطاطيتان قويتـان تمكنانه من التهام الأشواك الحاده التى يمكنـها اختراق جلد الحذاء ، وهما فعالتان فى تجميع الغذاء بحيث لا يفقد الجمل أىّ رطوبة عند لسانه إلى الخارج ، والجمـال تلتهم أشياء لا تلتفت إليها مخلوقات أخرى كورق السنط أو حتى أطباق البلاستيك إذا جاعت .

٤ – إن الطعام يمر فى المعدة جيئة وذهاباً عبر أربع (غرف) تستخلص الغذاء ، دون أن ينتج عنه نفايات كثيرة ، ونفاياته تصلح وقوداً فى الصحراء .

٥ – وأبرز مزايا الجمل قلة حاجته إلى الماء ، مع كبر حـجمه وعيشه فى الصحراء ، أما سرُّ ذلك فقد اكتشفه الباحث (نان سميث) من جامعة (ديوك) الذى اكتشف أن للجمل عشر طرق للاقتصاد فى الماء !! ومنها كمية البول القليلة ، حيث يستطيع الجمل أن يعيد إمرار مقدار كبير من بوله عبر الكبد لصنع بروتين جديد ، أما غيره من المخلوقات فقد يصاب بالتسمم إذا لم يستطع التبول الكافى !

٦ – والسنام (أعلى ظهر الجمل) يخزن من الشحم ما يعادل خمس وزن الجسم ، ومنه يسحب الجمل ما يحتاج إليه من غذاء إذا لم يجد طعاماً ، وبهذا فلا حاجة إلى توزيع الشحم على أماكن أخرى من الجسم .

٧ – يتخلّص الجمل من حرارة الصحراء بغطاء كثيف من الوبر وهو يحميه أيضاً من برد الشتاء.

٨ – فى حالة الأزمة الطارئة يستطيع الجمل أن يأخذ ما يحتاج إليه من الماء مباشرة من أنسجة الجسم ، فيخسر ربع وزنه من غير أن يضعف كثيراً ، وإذا رعى عشباً رطباً اكتفى بما فيه من ماء لشهور.

٩ – يستطيع الجمل ــ بما آتاه الله من قوة ــ السير بسرعة (٤٠ كجم) فى اليوم بحمل (٢٠٠ كجم) لمدة ثلاثة أيام متواصلة ، وإذا كان غير محمل يجرى بسرعة (١٥ كجم) فى الساعة لمدة (١٨) ساعة متواصلة ، ولا يستطيع حيوان آخر أن يفعل ذلك !

١٠ – إن الجمل يتصف بصفات خُلُقية ، فهو يغضب ويحاول الانتقام ممن يؤذيه ولو بعد

حين ، وفي حالات السرور يتودد إلى صاحبه ويمازحه ، وقد علمت أن الجمل له بعض الأيام (يصوم فيها) ؛بل إن بعض أصحاب الجمال أخبرني أن جمله (يدُخن !!!) لأنه تعود شم رائحة الدخان من صاحبه ، ولذا فهو يتوق إلى شم تلك الرائحة من صاحبه ، ولست أستبعد ذلك ، فقد اقرأت أن الجمال كان لها بعض الفضل في اكتشاف البن في بلاد اليمن ، حين لا حظ بعض الرعاة أن إبله تنشط نشاطاً غير عادى حين تأكل من تلك الأشجار ، ومن هنا بدأت قصة اكتشاف البن .

وهذه بعض أسرار ذلك المخلوق العجيب الجميل ، وهنا نعيد ذلك السؤال الإلهى الخالد ﴿ **أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت ؟** ﴾ وتلكم إذن بعض معالم اللوحة القرآنية الخالدة ، ولقد جاء المعمار اللفظى لها على أكل وجه ، فبدأت بالاستفهام الإنكارى الذى يثير العقل ويدفعه إلى التفكير ، ثم قدمت (الإبل) وهى تعيش معهم وتملأ عليهم حياتهم وهم عن أسرارها غافلون ، ثم يأتى بعد ذلك البحث عن (كيف خلقت) وهى تلك الكيفية التى ذكرنا بعض أسرارها .

اللوحة الثالثة

صاحب الجنتين والمؤمن

قال تعالى ﴿ **واضرب لهم مثلاً رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعاً ، كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئاً ، وفجرنا خلالهما نهراً ، وكان له ثمر فقال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالاً وأعزّ نفراً ، ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال ما أظن أن تبيد هذه أبداً ، وما أظن الساعة قائمة ولئن رّددت إلى ربى لأجدن خيراً منها منقلباً ، قال له صاحبه وهو يحاوره أكفرت بالذى خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلاً ، لكنا هو الله ربى ولا أشرك بربى أحداً ، ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله، إن ترنِ أنا أقل منك مالاً وولداً ، فعسى ربى أن يؤتين خيراً من جنتك ويرسل عليها حُسباناً من السماء فتصبح صعيداً زلقاً ، أو يصبح ماؤها غوراً فلن تستطيع له طلباً. وأحيط بثمره فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها وهى خا وية على عروشها**

ويقول ياليتني لم أشرك بربى أحداً ، ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصراً .هنالك الولاية لله الحق ، هو خير ثواباً وخير عقباً ﴾ (الكهف : ٣٢-٤٤)

جمعت هذه اللوحة أصولاً من العقائد الإسلامية كالتوحيد وخلق الإنسان وبيان قدرة الله تعالى على كل شيء وفيها بيان وجوب عباده الله وحده وشكره على نعمه ...الخ .

أما حدود اللوحة فهى واضحة للناظرين ، فهذان بستانان (جنتان) عن يمين وشمال محفوفتان بالنخيل وهما من أعناب وبينهما زرع ، وفيهما أنهار تتفجر خلالهما ، فأى جمال يُشبع النفس أكثر من هذا لتحمد ربها ؟ وأى رزق أكثر من هذا يحتاج المرء ليشكر ربه ، مع أنه مطالب بالشكر على القليل والكثير ؟

ثم إن الجنتين فى وقت إثمار ، وهو وقت يبعث على السرور والإحساس بالجمال وبقرب مجيء الخير فى آنٍ معاً ، وها نحن نرى صاحب الجنتين مقبلاً يملؤه الكبر والفخر والخيلاء ، وقد راح يزهو على صاحب له يمشى معه فيخبره أنه أكثر منه مالاً وأعز نفراً ، وهذا مقياس الجاهلية لا يتبدل ، الغرور بكثرة المال والأعوان ، ثم ها هو يتقدم ويُلقى ببصره يميناً وشمالاً ، فيرى الأعناب والزرع والنخل الباسقات ، وهذا كله أدعى إلى شكر الله تعالى و لكنا نسمع غير ذلك ، قال الرجل (ما أظن أن تبيد هذه أبداً) وهذا يستلزم اعتقاده بإنكار قدرة الله عليه هو ، وكل ذلك كفر صريح ، ثم أفصح الرجل عن دخيلة نفسه دون أن يُثار أو يجره صاحبه إلى الكلام ، وإنما كدأب أشياعه من الكفار يعلنون كفرهم صريحاً كل حين ، قال (وما أظن الساعة قائمة) وإنكار الساعة كفر لأن الإيمان باليوم الآخر من شروط الإيمان بالله تعالى ، ثم هو لا يكتفى بذلك ، وإنما يزعم أن الساعة إذا قامت ، وإذا رُدّ إلى ربه ، فسيجد عنده أفضل مما فى الدنيا !! والرجل ومَن على شاكلته يستندون إلى مقياس جاهلى يزنون به مثل هذا الأمر ، وهو أن الغنى لو لم يكن يستحق المال ما أعطاه الله إياه ، فالمال عندهم كرامة حتى ولوكان مالكه كافراً !! أما فى التصور الإسلامى فالمال أمانة يُستخلف المرء عليها ليؤدى ما أمره الله به فى ذلك المال ، لأنه مال الله الذى آتاه عباده ، أما الرزق والغنى فأسبابه ميسرة للمؤمن والكافر على حد سواء ، وهذا وجه قبيح للكفار تظهره اللوحة بضرب هذا المثل ، فما حدود الوجه الآخر منها ؟

بعد أن ألقى الكافر كلماته الخبيثة وسكت ، نسمع صوتاً هادئاً مطمئناً ، يملؤه الثبات والعزة ، نسمع صوتاً لم ينخدع صاحبه بالزخرف والمال والبنين ..... فقال لصاحبه (أكفرت بالذى خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلاً ؟) لقد ذكره بخلق الله إياه من التراب ، ونعمة الله عليه فى خلقه ، ثم يعلن بصوت عال واثق مطمئن أمام صاحبه أن الله واحد لا شريك له ، وهورب كل شيء (لكنا هو الله ربى ولا أشرك بربى أحداً) ثم ينصحه بأن يشكر نعمه الله عليه ، ويعظه بأن الله قادر على إهلاك جنته تلك التى يفخر بها .

ولم يطل الحوار ، ولم يردَّ الكافر على كلام المؤمن ، وإنما انتهى الحوار ليأتى العقاب سريعاً لتكتمل اللوحة (وأحيط بثمره فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها وهى خاوية على عروشها) هكذا فى لحظات قصار يصدر الأمر ويُنفَّذ فور صدوره ، وها هو الرجل يضرب كفاً بكفٍ - فعلَ النادم -ويثوب إلى رشده بعد العقاب ، ويندم حين لا ينفع الندم ، إن ندمه هنا يشبه ندم فرعون حين أدركه الغرق فزعم أنه آمن بإله موسى وبنى إسرائيل ، وذلك وقت لا فائدة فيه للندم !

ويأتى التعقيب الإلهى على الأحداث ليكون عبرة لأولى الأبصار والألباب ، فحين وقع العقاب انفض الأعوان والأنصار ، أولئك الذين كانوا منذ قليل موضع فخر وغرور ، وتبقى الولاية أبداً لله الحق ، الذى عنده خير الثواب ، وخير عقبى للصالحين .

وهذه لوحة حية متحركة ، فيها الألوان الزاهية ، ألوان الأشجار والثمار اليانعة ، والأنهار والجداول تنتشر هنا وهناك ،وفيها الحوار والحركة ، بل تتغير فيها المشاهد سريعاً ، من النخل الباسقات والأعناب المعروشات ... إلى ذلك كله مهدماً على عروشه جزاءً وفاقاً !

ولنلق نظرة على الألفاظ والتراكيب .. فهاتان جنتان لم (تظلما) شيئاً من ثمرهما أى لم تنقصا شيئاً ، واختيار لفظ الظلم هنا معناه أن الجنة مسخرة بأمر الله لصاحبها ، والنقص من ثمارها (ظلم) والمؤمن أو الإنسان عموماً حين يُنقصُ شيئاً من حق الله فهو أيضاً (ظلم) لنفسه ، ولفظ (فجرنا) يفيد كثرة الماء ، ولفظ (أنا) يفيد بيان غرور الرجل واعتداده بنفسه بغير الحق ، ولهذا يأتى الضمير (أنا) مع المؤمن مدغماً فى لكن تواضعاً

لله عز وجل (لكنا) أى لكن أنا أقول !! وبناء الفعل (أُحيط) لغير المعلوم فيه بيان أن أمر الله تعالى ينفذ بمجرد إصداره ، ولا حاجة لذكر الفاعل هنا فهو حاضر لا يغيب ! وحين كانت الجنتان فى حالة (إثمار) وبهجة كانتا بلفظ المثنى (جنتين) وهما بعد أن تهدمتا وأصبح منظر الخراب واحداً يشمل كل ما فيهما ، جنة واحدة (وهى خاوية على عروشها) ، لأنهما فى الحالة الأولى تملآن العين بالأشجار والألوان والثمار والأنهار ، ولكنهما بعد الهلاك شىء واحد ولون واحد ولوحدة واحدة هالكة !

إن المسلم حين يقرأ هذه الآيات ويُدير معانيها فى عقله وقلبه ويرسم حدود ألفاظها فى ذهنه ، ويتدبر ما وراءها ......تتربى لديه العقيدة السليمة بكل أصولها ومعالمها ، وهذا هو المطلوب من اللوحة أولاً وآخراً .

اللوحة الرابعة

زخرف الأرض

قال تعالى ﴿ **إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام ، حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس ، كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون** ﴾ (يونس : ٢٤).

من عجائب القرآن أنه يرسم لنا لوحات لم نرها بعد فى عالم الواقع ، وإنما هى كائنة فى المستقبل حين يشاء الله تعالى ، ومن ذلك صور النعيم فى الجنة والعذاب فى النار ، وكله غيب يصوره لنا القرآن تصويراً حياً متحركاً بحيث نكاد نراه شاخصاً أمام أعيننا ، وبقى علينا أن نتدبر ونتذوق لنعرف ماوراء ذلك كله .

واللوحة التى بين أيدينا ــ فى تصورى ــ يتحقق جزء منها أمام أعيننا ليل نهار ، وبقى جزء منها فى عالم الغيب إلى أن يشاء الله له التحقق فى عالمنا ، وقد بدأت بعض معالم ذلك الجزء من اللوحة تتحقق كما سترى .

وفى الآية أراد الله تعالى أن يضرب مثلاً لعباده ، يمثل به لقصر الحياة الدنيا ،

ومراحل حياتهم فيها ، فمثل لهم ذلك بماء ينزل من السماء فيختلط به نبات الأرض ، فيأكل منه الناس والأنعام ، حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت بألوان النبات والثمار والزروع ، وظن الناس أنهم قادرون على جنى ثمارها ، أتاها أمر الله ليلاً أو نهاراً فجعلها كالزرع المحصود ، كأنها لم تكن بالأمس ذات غَناء ، وهذه آيات مفصلات لمن يتفكر ... وهذا باختصار قول اثنين من المفسرين هما ابن كثير والسيوطى فى هذه الآية .

وكنت قد كتبت تعليقاً عليها ، أنقله للقارئ الكريم هنا ، قلت (١) : إن الزخرف والزينة المقصودين فى الآية ــ والله أعلم ــ هما اكتمال زينة هذه الأرض وزخرفها من حضارة وعمران وصناعة وزراعة ... ولعنا نلاحظ تطور ذلك كله فى سرعة هائلة فى حضارة اليوم ، والإسلام لا يعارض ذلك أبداً ، بل يحفزه فى حدود معلومة بحيث يكون لخدمة الإنسان وتقدمه لا لا ستعباده وإذلاله كما آل إليه الأمر ... والبشر كلما ازداد تقدمهم المادى ، فسيكون ذلك أدعى إلى اعتقادهم فى أنفسهم القدرة المطلقة على الأرض ، وهو المقصود بقوله تعالى (وظن أهلها أنهم قادرون عليها) ولنتدبر الكلمات ، فظن تعنى علم أو اعتقد ، وكلمة (أهلها) ذات دلالة خطيرة فى هذا السياق ،إذ إنها تشمل أهل الأرض جميعاً ، فأين موقف المسلمين إذن ؟ وهل هم مع أولئك الذين سيعتقدون فى أنفسهم القدرة المطلقة على هذه الأرض ؟ إن ذلك آخذ فى التحقق للأسف الشديد ، حيث تقوم حياة كثير من المسلمين اليوم على التزام النظرة الغربية إلى الحياة فى كل شئ بدءاً بالملبس والمأكل ، وانتهاء بغائية التاريخ والوجود الإنسانى نفسه على هذه الأرض ، بل إن واقع المسلمين نفسه فى معظمه صور مشوهة وممسوخة للواقع الغربى أو الشرقى ، إننى لا أفرق بين المعسكرين الغربى والشرقى ، لأن الكفر ملة واحدة ، ولأن المادية الشرقية هى إحدى ثمار الحضارة الغربية بصورة ما ، وماركس لا يختلف كثيراً عن « دارون وهيجل وفرويد ...» وكلتا الحضارتين تمت بنسب عريق إلى اليهودية (٢) !

---

(١) كان ذلك فى بحث مخطوط بعنوان (سنن التاريخ كما يصورها القرآن الكريم) ١٩٨٦ .

(٢) أرجو ملاحظة أن هذا الكلام كتب عام (١٩٨٦) قبل انهيار الشيوعية وتَحوّل نظمها وشعوبها نحو الغرب لا قتباس النموذج الغربى والقياس عليه .

والمهم أن ذلك (التوحّد) فى النظرة إلى الحياة والتاريخ آخذ فى الازدياد ، ولعل الحديث عن أن العالم قد أصبح قرية صغيرة لتطور وسائل المواصلات والاتصالات يؤيد ما نقول ، وكل ذلك سيؤدى إلى تبلور موقف موحد فى النهاية وهوما جمعته كلمة (أهلها) فى الآية ، وحين يصل الناس إلى هذا الاعتقاد فإن الأمر الإلهى بالدمار الكامل سوف يتحقق ، ولا تقوم الساعة إلا على شرار الناس كما فى الحديث الشريف الذى رواه مسلم فى باب (ذكر الدجال وصفته وما معه) قال فى حديث طويل : (... ويبقى شرار الناس يتهارجون فيها تهارُج الحُمر ، فعليهم تقوم الساعة »

ولعل سائلاً يسأل : إن ثمة مسلمين يبقون فى أمة محمد ﷺ إلى يوم القيامة فأين موقفهم من هذا كله ؟ نقول إن هؤلاء قلة قليلة ، ورأيهم وموقفهم لا يؤثر فى موقف الأغلبية الكاسحة من أهل الأرض والعبرة حينئذ بالموقف شبه الجماعى لأهل الأرض ، أما المؤمنون فلهم اعتبارهم ومكانتهم بميزان آخر وفى مكان آخر عند الله تعالى يوم القيامة ، حيث يُبعث الميت منهم فى ذلك الهلاك على نيته التى مات عليها .

والغرض الذى تريد اللوحة فى النهاية أن تنقله إلينا هو التحذير من ترك رؤية الإسلام ـ وهى الحق ـ لقضايا الأرض والحياة والتاريخ إلى غيرها من الرؤى الوضعية ، مهما كانت قوة أصحابها المادية ، ومهما كان زخرفهم وزينتهم .

ويبدأ معمار الآية اللفظى بالأداة المؤكدة الحاصرة (إنما) وتستعمل التشبيه (تشبيه التمثيل) لتصوير الأمر بدقة تقربه إلى الأذهان والأعين وتجعله شاخصاً يتحرك ، ثم انظر إلى توالى الأفعال (أخذت .... ازينت .... ظن أهلها) وهو يدل على استمرار تقدمهم فى الحضارة المادية ، ثم إنها فى الإهلاك لا تحتاج إلى كثرة الأفعال هذه وإنما (أتاها أمرنا) ثم يتتابع الهلاك فى كلمات قلائل ، ولا نفيق إلا على تلك الحقيقة (كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون)

اللوحة الخامسة

مشهد من البعث

قال تعالى ﴿ ونُفخ فى الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون ، قالوا

ياويلنا ، من بعثنا من مرقدنا ؟ هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون . إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون . فاليوم لاتظلم نفس شيئاً ، ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون ﴾ (يس : ٥١ـ٥٤).

نحن الآن مع لوحة لم تحدث بعد في عالم الواقع ، وإنما هي غيب ، ومن شروط الإيمان أن يؤمن الإنسان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره ، وهذه اللوحة سوف تحدث في اليوم الآخر ، وإنا منتظروها كما ينتظرها الناس ، وفي فترة الانتظار هذه (في الجزء الدنيوى منه) ينبغي على المسلم أن يعمل لا تقاء الأهوال التي ستحدث في اليوم الآخر ، وذلك بالإيمان الصحيح والعمل الصالح . وقد كذب كثير من الناس باليوم الآخر قديماً وحديثاً ، ولا قيمة لتكذيبهم ، فقد (نُفخ) في الصور ، هكذا بالفعل الماضي ، كأنما هو قد حدث وانتهى ! إن أمر الله تعالى ماضٍ متحقق سواء كان ماضيا أم مستقبلاً ، وبعد النفخ مباشرة في الصور (البوق) يخرج الناس من الأجداث (القبور) منتشرين كأنهم (جراد منتشر) كما في آية أخرى ، و هم هنا (ينسلون) أى يسرعون ، ولكن إلى أين ؟ إنهم اليوم إلى ربهم ، وهو سبحانه الذى أعرضوا عنه كثيراً وعن رسله و هَدْيه ، واليوم لا خيار لهم فهم مُساقون ، وهاهم يتساءلون بعد صدمة البعث والخروج من الأجداث : ياويلنا من بعثنا من مرقدنا ؟ لطالما كذبوا في الدنيا بالبعث والحساب والجنة والنار ، وهاهم يُقرون معترفين بعد أن رأوا أنفسهم في ساحة الحشر أذلة ، أما المؤمنون فيخرجون من قبورهم فرحة أنفسهم بلقاء ربهم ، طامعين في رحمة الله تعالى **﴿ لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذى كنتم توعدون ﴾** (الأنبياء : ١٠٣) ثم يأتى إقرار المكذبين في يوم لا ينفع فيه الإقرار (هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون) ماذا عليهم لو قالوها وآمنوا بها هنا في الدنيا ؟ ولكنا نسمع صوتهم في الآخرة يقرون صاغرين أذلة بأن وعد الرحمن قد تحقق وأن المرسلين كانوا صادقين ! إنه إقرار العاجزين فلا قيمة له ولا غَناء ، ونترك هؤلاء وفزعهم ـ أمّننا الله إياه ـ إلى ذلك الحديث العجيب (إن كانت إلا صيحة واحدة) فهو نداء واحد جمع به الله الأولين والآخرين ، فإذا (هم جميع لدنيا مُحضرون) لا يستطيع أحد أن يتخلف ، فأمر الله ماض لا راد له .

ولوكان أمر هؤلاء المكذبين موكلاً إلى بشر مثلهم لا نتقم وظلم ، ولكن أمرهم موكل إلى الله تعالى ، وهو لا يظلم أحداً شيئا ، فهم مُجازَوْن إذن على أعمالهم فحسب ، ولذا يأتي هذا التعقيب بعد صورة الحشر ، لئلا يتوهم إنسان أن الله تعالى قد يظلم الظالمين شيئا طالما كذبوا به وبرسله (فاليوم لا تُظلم نفس شيئا ولا تجزون إلا ماكنتم تعملون) .

واستعمال الكلمات والتراكيب يخدم غرض اللوحة لتقوم بمهمتها خير قيام ، فالفعل الماضى (نُفخ) يدل على أن الأمر قضى وانتهى رغم أنه مازال غيباً ، وبناء الفعل لغير المعلوم فيه إشعار بعظمة الأمر وهول الموقف ، وتقديم (إلى ربهم) على الفعل العامل فيه (ينسلون) فيه دلالة على عظمة المقدم وتحديد المسار يومئذ وإضافة الضمير (هم) إلى (رب) فيه دلالة على أن الله رب كل شيء ورب هؤلاء المكذبين ... وهم لشدة الفزع ـ حيث ترى الناس سكارى وماهم بسكارى ولكن عذاب الله شديد ـ يتساءلون : من بعثنا من مرقدنا ؟ وهذا استفهام لا يحتاج إلى جواب ، فالجواب معلوم لهم ولغيرهم ، ولذا لا يرد جواب على سؤالهم فى السياق! ثم انظر إلى هذا التوكيد (جميع) فلن يفلت أحد من ذلك الموقف ، وتقديم (لدينا) على عامله (محضرون) يفيد أهمية المقدم ، وانظر إلى تنكير (شيئا) الدال على التقليل فالذى لا يظلم قليلاً ، لا يظلم كثيرا ، وكل مجزى بما قدمت يداه .

اللوحة السادسة

حوار فى ساحة الحساب

قال تعالى ﴿ **وبرزوا الله جميعاً فقال الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعاً فهل أنتم مُغنون عنا من عذاب الله من شيء ؟ قالوا لو هدانا الله لهديناكم ، سواء علينا أجزعنا أم صبرنا مالنا من محيص • وقال الشيطان لما قضى الأمر : إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى ، فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ، ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخيّ ، إنى كفرت بما أشركتمون من قبل ، إن الظالمين لهم عذاب أليم** ﴾ (إبراهيم : ٢١ — ٢٢) .

هذه لوحة حدودها المكانية غير معلومة لنا ، ففى يوم القيامة تُبدل الأرض غير الأرض والسماوات ، وهنالك جنة عرضها كعرض السماوات والأرض فما بالك بطولها ؟ ! وهنالك نار لا يعلم سعتها إلا الله ... والحدود الزمنية لذلك اليوم هى خمسون ألف سنة مما نعد فى أيامنا الدنيوية ، يقضى الله فيها بين العباد ، وهذا الاتساع المكانى والزمانى هو الذى يجعل القرآن يفصل المشاهد ويعددها فى اليوم الآخر ، فالمكان متسع والزما ن طويل طويل ، ولكل مكان (داخل موقف الحساب) ولكل زمان (داخل زمان الحساب) لوحاته وصوره وأحاديثه .... هذا هو السبب فى كثرة المشاهد والصور والأحاديث فبعضها فى مكان دون مكان ، وبعضها فى زمان دون زمان ....الخ ونحن هنا مع (مشهد) واحد من تلك المشاهد وموقف واحد .

ونحن نلتقى هنا بالمستكبرين وأتباعهم فى ساحة الحساب ، وهم قد (برزوا) والفعل فى زمن الماضى كأنه حدث وانتهى ، وهم قد برزوا لله سبحانه ، فهل كانوا خافين عليه ؟ كلا إن الله لا يخفى عليه شيء فى الأرض ولا فى السماء ، وإنما هم قد برزوا من قبورهم للحساب أمام الله تعالى ، وها نحن نسمع ذلك الحوار العجيب بين السادة المستكبرين المترفين ، وبين أتباعهم من الضعفاء الذين تابعوهم فى الحياة الدنيا ، وما أكثر ما يُضلُّ المترفون أتباعهم ! وكثيرة هى الأمثلة فى حياتنا الدنيا ، كثير من الناس اليوم يتخذون من الفاسقين والفاسقات من أهل الترف والزينة والسلطان ، يتخذون منهم قدوة فى كل شيء ... وها نحن نلتقى بالجميع فى ساحة الحساب ، وها نحن نسمع صوت الضعفاء البائسين ، ذلك الصوت الذى لا يمكن أن يرتفع أو ينكر شيئا فى الحياة الدنيا ، ها هو يرتفع فى وقت لا يغنى فيه ارتفاعه ! وها هم يقولون للذين استكبروا أ تستطيعون دفع (شىء) ولو كان قليلاً من عذاب الله عنا ؟ فطالما تابعناكم فى الدنيا وجعلناكم أئمة لنا ، ولكن أنى للمتكبرين ذلك ، إنهم لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم ، فكيف بغيرهم ؟ وهم يجيبون فى حسرة وندم (لو هدانا الله لهديناكم) أى لو أننا اتبعنا هدى الله لهديناكم ، ولكنا ضللنا واتبعتمونا ، فكلٌ مؤاخذ بذنبه ، ويستأنف المتكبرون (سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص) ولأول مرة يستوى الجزع والصبر ! لقد كانا فى الدنيا لا يستويان ، ولكنهما فى الآخرة مستويان لأنهما لا فائدة منهما فى الآخرة ، لقد مضى – فى الدنيا – وقت الجزع أو الصبر ، وهنالك فى الآخرة الحساب ثم الجزاء لا

غير ، وفى الآخرة (لا محيص) لا مهرب ولا ملجأ من الله إلا إليه ، و (محيص) مؤكدة بمن ، ومنكرة للدلالة على أنه لا مهرب من أى نوع .

وها هو الأمر يقضي ، فيأمر الله بأهل الجنة إلى الجنة . وبأهل النار إلى النار ، وهنا نسمع صوتًا قبيحًا منكراً ، يعلو فى أتباعه ، إنه صوت الشيطان ! ذلك الذى خنسَ فى الدنيا فلم نسمع له صوتا ، إن كانت إلا وساوس فى الصدور ! وصوته يعلو هنا فى أتباعه (إن الله وعدكم وعد الحق) ياللعجب ! إنها المرة الأولى التى يعترف فيها الشيطان لأتباعه بأن وعد الله حق ، ولكن حين لا ينفع ذلك شيئا ، ويستأنف اللعين الرجيم تبيان الحقيقة لأتباعه (ووعدتكم فأخلفتكم) هذه هى الحقيقة المرّة التى لايريد أتباع الشيطان أن يفيقوا منها هاهنا فى الدنيا ، وهم هنالك يسمعون صاغرين أذلة ، فالشيطان يعدهم الفقر ويأمرهم بالفحشاء ، وهم مع ذلك يتبعونه ، والله يعدهم مغفرة منه وفضلاً ، وهم مع ذلك ينسونه سبحانه ! ولنتابع حديث الشيطان فى أوليائه (وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى) نعم ، لم تكن له قوة يفعل بها ما فعل ، لم يكن له إلا الوسوسة فى الصدور ، وما هى إلا دعوة فاستجاب الأتباع على الفور ! ولذا يقول (فلا تلومنى ولوموا أنفسكم)

لقد طلب الضعفاء العون من المتكبرين فلم يجدوه ، وها هم جميعاً ينتظرون العون من الشيطان فيصرخ فيهم (ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخىّ) ما أنا بمُغنٍ عنكم شيئاً من العذاب ولا أنتم كذلك تُغنون عنى شيئاً ، وها هو يعلن كفره صريحاً فى الآخرة وقد كان يخفى بعضه عن أتباعه فى الدنيا (إنى كفرت بما أشركتمون من قبل) فلقد أشركوا بالله وعبدوا الشيطان ، بل إن فريقاً منهما إتخذوا الشيطان إلها ، ومنهم من أطاعه ، والطاعة عبادة !

وعند هذا الحد يُقفل باب الحوار فلا وقت أكثر من ذلك ، ولديهم فى جهنم الوقت الطويل للحوار والنقاش والتلاوم ، هذا إن أفاقوا من سكرات العذاب المهين الأليم الشديد ..... وفى نهاية اللوحة الخالدة يأتى ذلك التعقيب الإلهى لتكتمل اللوحة بهذه الجملة القرآنية (إن الظالمين لهم عذاب أليم)

ونعود إلى البناء اللفظى باختصارلنتبين بعض جماليات التركيب فى الآيتين ، فالفعل

الماضى (برزوا) دال على تحقق وقوع الحدث كما ذكرت ، و (جميعاً) حال مؤكد لبرزوهم بلا تخلف أحدٍ أو تأخره ، وقول الضعفاء (إنا كنا) بلفظ الماضى يفيد تبرؤَهم من سادتهم فى ذلك اليوم ، والاستفهام فى (فهل أنتم مغنون ...) يفيد شدة الحيرة والسعى فى التماس العون حتى لوكان ممن لا يرجى عنده ، وتنكير (شيء) وتوكيده بمن قبله يفيد التقليل ، فهم يبحثون عن أى عون ولو كان قليلاً ! ، والهمزة وأم فى (سواء علينا أجزعنا أم صبرنا) للتسوية بين حالتى الجزع والصبر ، وكونهما لا تنفعان ، و(محيص) منكرة ومؤكدة بمن كذلك ، والشيطان المكذب فى الدنيا ، يؤكد أقواله فى الآخرة عن الله تعالى بإنّ (إن الله وعدكم وعد الحق) ويترك كلامه هو غُفْلاً من التوكيد (ووعدتكم فأخلفتكم) وفى تنكير(سلطان) بمن كذلك تقليل للسلطان (وهو دعوته إياهم وإجابتهم) ودخول الباء فى خبر (ما) يفيد التوكيد (بمصرخكم .... بمصرخىّ) ثم يؤكد المولى سبحانه كلامه بأن (إن الظالمين لهم عذاب أليم) لينبهنا بهذا التوكيد إلى جميع الحقائق المتقدمة لنأخذ حذرنا من عدونا هاهنا فى الدنيا ، قبل أن يأتى ذلك اليوم العصيب !

اللوحة السابعة

مشهد من الجنة

قال تعالى ﴿ **يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون . الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين .ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون . يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب ، وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون .وتلك الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون . لكم فيها فاكهة كثيرة منها تأكلون** ﴾ (الزخرف : ٦٨ – ٧٣).

هذه لوحة داخل الجنة ، وفيها نعيم كثير مقيم ، وفيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، هنالك حيث رحمة الله الواسعة تتجلى على عباده

فيكشف لهم الحجاب حتى يروا وجهه الكريم .

ولنتأمل في لوحتنا هذه - جعلنا الله من أصحابها - فالله - جل جلاله - ينادى عباده ، إنهم هنالك يسمعون صوت الرحمن ويرون وجه الرحمن ! إن ذلك ليكفيهم متاعاً دائماً ، ولكن لهم دائماً عند ربهم المزيد ! وانظر الآن إلي بعض هذا المزيد ، فبعد سماع النداء بصوت الرحمن (يا عبادِ) ماذا يعطيهم ؟ (لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون) إن أول النعيم هو الأمان النفسى ، ذلك الذى لا يهنأ العيش - مهما كان رغده - إلا به ، إن الله يعطيهم أمانا من الخوف والحزن فى يوم يجعل الولدان شيباً ، ولكن من هؤلاء (العباد)الذين لهم كل هذه الكرامات ؟ لنرجع إلى اللوحة ﴿ **الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين** ﴾

ولنتابع الآن بعض ذلك المزيد من النعيم الذى لاينقطع ﴿ **ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون** ﴾ ها هم ينادون إلى الجنة وليسوا هم فحسب ، بل هم وأزواجهم المسلمات وذرياتهم المسلمة كذلك ، وهؤلاء جميعاً فى الجنة (يحبرون) والحُبُور : السرور والسعادة المادى منها والمعنوي ، وأصل الحبور فى اللغة : التزيين والتحسين ، وبعد ذلك الأمان والقرار النفسى حيث لاخوف ولا حزن ، يتمتعون بالنعيم المادى ، ذلك الذى حرموا منه كثيراً فى الحياة الدنيا ، إنه اليوم خالص لهم طيب مبارك فيه ، وها هم الولدان المخلدون يحملون صحاف الذهب والفضة والأكواب ، مليئة من خمر وعسل ولبن وماء عذب فرات ..... وثَمَّ أكثر من ذلك (وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين) إن ما يشتهيه المسلم حاضر فى الجنة هنالك ، وهنالك كل منظر جميل يلذ الأعين ، من الأشجار والقصور والأنهار والذهب والفضة ، إلى الحور العين العُرُب الأتراب المقصورات فى الخيام ..... فكل ما هنالك جميل ، صنعة الرحمن لعباده ، وذلك كله نعيم مقيم وهم ينادون - تطميناً لأنفسهم - (وأنتم فيها خالدون) فهم لا يخافون انتهاء النعيم ، ولا يخافون موتاً ، فلا موت هنالك وإنما خلود !

ولنتابع بقية اللوحة (لكم فيها فاكهة كثيرة منها تأكلون) فالفاكهة بألوانها المختلفة وأسمائها - وهى لا تشبه فاكهة الدنيا إلا فى الأسماء فحسب - أمامهم ليل نهار ، وهى كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة وهم منها يأكلون .

ونعود إلى الجمال فى استعمال الألفاظ والتراكيب ، ذلك الذى نؤكد عليه مراراً لأهميته فى أداء المعنى ، وعندنا هنا فى بداية اللوحه النداء بالأداه (يا) التى هى لنداء القريب والبعيد واستعملت هنا لنداء القريب ، وإضافة (ياء المتكلم) إلى العباد دلالة على قربهم من ربهم واختصاصهم برحمته ، وتنكير (خوف) فى (لا خوف عليكم) فيه دلالة على نفى كل أنواع الخوف صغيره والكبير ، فلهم الأمن بعد ذلك الخوف الذى نالهم فى الدنيا بأذى المجرمين ، وفى قوله (ولا أنتم تحزنون) بلاغة جليلة ، إذ ذكر النفى أولاً ثم قدم ذكرهم (أنتم) وأخبر عنهم بـ (تحزنون) وفى ذلك تكريم لهم بإعادة ذكرهم فى الآية مرات ، وتكرار ذكر المحبوب أحد علامات الحب ، ثم فى التفخيم والتعظيم الذى يحمله قوله (الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين) وهو نعت لـ(عباد) ثم هذا الأمر الإلهى الذى يتمنى كل إنسان سماعه (ادخلوا الجنة) وإعادة ذكرهم تكريما لهم (أنتم وأزواجكم) و فى بناء الفعل (يطاف) لغير المعلوم تعظيم لشأن الطائفين من الولدان المخلدين أشباه اللؤلؤ المنثور ، وتقديم شبه الجملة (فيها) وهو الخبر على المبتدأ (ما تشتهيه الأنفس ......) يدل على مكانة المتقدم وعظمته ، وفى الإشارة إلى الجنة بـ (تلك) تعظيم لقدرها ، وتقديم ذكرهم كذلك (لكم) لأهميتهم وإعادة لذكرهم ......

اللوحة الثامنة

« مشهد من النار »

قال تعالى ﴿ **إن شجرة الزقوم . طعام الأثيم . كالمهل يغلى فى البطون . كغلى الحميم . خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم . ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم . ذق إنك أنت العزيز الكريم . إن هذا ما كنتم به تمترون** ﴾ (الدخان : ٤٣ – ٥٠)

نحن هنا مع لوحة تقشعر لها الجلود وترتجف الأبدان وتصطك من أهوالها المسامع ، وتخافها كل نفس مسلمة أيما خوف ، إنها لوحة من الجحيم ، أعاذنا الله منها !

وتبدأ حدود اللوحة بهذا التوكيد (إن) وبعده (شجرة الزقوم) وهل في النار شجر ؟ تلك النار التي لا تبقى ولاتذر ، والتى وقودها الناس والحجارة ، هل فيها شجر ؟

نعم إن فيها لشجراً !! من نوع خاص ، وهو ينبت في طينة الخَبَال فى قعر جهنم ، وهو يُسقى بماء هو فى الحقيقة صديد أهل النار ! فكيف يكون الثمر ؟ إنه شجر (الزقوم) وفى حروف اللفظ ما ينبىء عن بشاعة ما وراءه ! ويقال إن الزقوم شجر مُرُّ الطعم بأرض العرب ، وأياً ما يكون فيكفى أنه فى جهنم ، وليس فيها إلا كل خبيث قبيح ، وتلك الشجرة هنالك لمهمة ما ، إنها (طعام الأثيم) إنهم إذن يأكلون فى جهنم ، ولكن انظر إلى هذا الذى يأكلون ، ما هى طبيعته وما صفته ؟ إنه (كالمهل) والمهل المعدن المذاب بالنار ، وهو يغلى فى البطون فالطعام هنالك من نار تغلى منها البطون ، وغليه (كغلى الحميم) وهو الماء الشديد الحرارة ، فأىّ طعام أخبث من هذا ؟ ، وبعد هذه الوجبة الخبيثة النتنة الحارة ... نسمع الأمر الإلهى للملائكة (خذوه) وهو أمر مخيف مرعب لمن له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ، فالآمر هو الله تعالى وأمره نافذ فور صدوره ، والمأمورون هم الملائكة الكرام ، الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، فهل ثَمَّ من محيص أو ملاذ ؟

ولكن كيف يأخذونه ؟ إن الأخذ نفسه أليم شديد (فاعتلوه) أى خذوه بعنف لا رحمة معه ، خذوه إلى هنالك (إلى سواء الجحيم) أى إلى وسطها ، وقد كان فى أطرافها كفاية للعذاب ، ولكن وسطها أنكى وأبلغ فى العذاب وأقطَع لأملٍ فى خروج ! فطالما كذبوا فى الدنيا بالله ورسله وشرعه وتحاكموا إلى غير شرع الله وآذوا عباده الذين يريدون وجه الله ، وها هى النتيجة العادلة ، ثم لنستمع إلى هذا الأمر الإلهى المفزع ، فبعد أن سحبته الملائكة إلى وسط جهنم ، ينادَوْن مأمورين (صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم) إن الطعام يفعل فعله بالبطن والعذاب المصبوب يفعل فعله فى الرأس والجلد ، وهذا المصبوب كما فى سورة الحج ﴿ **يُصهَرُ به ما فى بطونهم والجلود** ﴾ الآية : ٢٠ ، وهذا كله لا يكفى ، فهنالك عذاب من نوع آخر لا يقل عن العذاب الجسمى ، إنه عذاب النفس ، وقد رأينا في اللوحة السابقة أن أول ما أعطى الله عباده فيها الأمان النفسى (لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون) وعلى النقيض من ذلك يكون لأهل النار الخوف والحزن ، وهم لذلك ينادون هنا ممثلين فى سادتهم الآثمين (ذق ، إنك أنت العزيز

الكريم) وما أبلغها من عباره ! ذق أيها المدعى لنفسك العزة والكرامة ، ألم تعلم أن « العز إزار الواحد القهار ، والكبرياء رداؤه ، فمن نازعه إياهما عذّبه (١) ؟ » وإذا كان هذا حال واحد من أهل النار ، فليس إخوانه بأحسن منه حالاً أبداً ، فلهم دائماً مزيد من الغم والعذاب الأليم .... وهم هنالك ينادون – زيادة في التبكيت والعذاب النفسي - ينادون (إن هذا ما كنتم به تمترون) هذا هو الحق المبين الذى جاءكم فى الدنيا فأعرضتم عنه ، وما ريتم فيه ، حتى أتاكم ما كنتم به تمترون ، فهل لكم من صريخ ؟؟

وهكذا تؤدى اللوحة هدفها ، يساعد فى ذلك جمالُ فى التركيب وبلاغة فى العبارة ، فالآيات هنا قصار متلاحقات كالسيل ينحط من علٍ فيأخذ فى طريقه كل شيء ، فتبدأ بهذا الحرف المؤكد (إن) وتعريف (شجرة الزقوم) هنا يفيد أنها علم من أعلام النار ، وهذا التشبيه (كالمهل) يقرب الحقيقة لمن يتغافل عنها ، وفى تشبيه الغلى فى البطون بغلى الحميم زيادة إيضاح للصورة وإظهار ملامحها ، وفى انتقاء الكلمات وتركيب حروفها مساعدة على نقل الصورة كما فى (الزقوم والغلى والحميم واعتلوه) كل ذلك يدل على القوة والشدة ، وتتابع أفعال الأمر المخيفة (خذوه ....اعتلوه ....صبوا ....ذق) يدل على أنه لا يملك من أمره هنالك شيئا ، فالأوامر تصدر ، والجميع ينفذ دون تأخر ، لقد كانوا فى الدنيا أحراراً فتركوا عبادة الله ، وهم هنا منفذون – رغماً عنهم – لأوامر ربهم ، وبذلك تكمل ملامح اللوحة وتؤدى غرضها على الوجه الأكمل .

* * *

خاتمة

وفى الختام نقرر إذن أن القرآن يربى الحس الجمالى للمسلم تربية إيمانية سليمة بصور متنوعة ، وهى على تنوعها تتسرب إلى نفوس المؤمنين فتشبع ظمأها إلى الحق والخير والجمال ، لترى الحياة وفق المنظور الإلهى الخالد الذى لا يتبدل أبداً ، وصدق الله العظيم إذ يقول ﴿ فلن تجد لسنة الله تبديلاً ولن تجد لسنة الله تحويلاً ﴾ فاطر : ٤٣

ولله تعالى الحمد أولاً وآخراً

---

(١) صحيح مسلم (بتصرف يسير) ١٧٣/١٦ .

أهم المراجع

١ – تاريخ الطبرى ، محمـد بن جرير الطبرى ، تحقيق : محـمد أبو الفضل إبراهيم ، ط ٤ دار المعارف ١٩٧٩م

٢ – تفسير ابن كثير للإمام عماد الدين اسماعيل بن كثير ، ط الحلبى د . ت .

٣ – التصوير الفنى فى القرآ ن ، سيد قطب ط٨ دار المعرف ١٩٦٨ م .

٤ – صحيح مسلم بشرح النووى ،ط الحلبى ١٩٥٩ م .

٥ – فتح البارى بشرح صحيح البخـارى ،لابن حجر العسقلاني ، ط دار الريان للتراث ١٩٨٦م

٦ – الكشاف ، للزمخشرى ط ٣ دار الريان للتراث ١٩٨٧ م .

٧ – لسان العرب ، لابن منظور ، ط دار المعارف د.ت .

٨ – المعجم المفهـرس لألفاظ القرآن الكريم ، لمحمد فـؤاد عبد الباقى ، ط موسسـة جمال للنشر ، بيروت د . ت .

٩ – المفردات في غريب القرآن ، للراغب الأصفهانى ، دار المعرفة – بيروت د . ت .



المحتويات

الموضوع	الصفحة
الفصل الرابع : دلالات الألوان فى القرآن الكريم	٤١
١ – اللون الأبيض	٤٥
٢ – اللون الأخضر	٤٦
٣ – اللون الأسود	٤٨
٤ – اللون الأصفر	٤٩
٥ – اللون الأحمر	٥٠
٦ – اللون الأزرق	٥١
الفصل الخامس : لوحات قرآنية	٥٣
١ – الفقراء المتعففون	٥٨
٢ – لوحة الإبل	٦٠
٣ – صاحب الجنتين والمؤمن	٦٣
٤ – زخرف الأرض	٦٦
٥ – مشهد من البعث	٦٨
٦ – حوار فى ساحة الحساب	٧٠
٧ – مشهد من الجنة	٧٣
٨ – مشهد من النار	٧٥
أهم المراجع	٧٨
الفهرس	٧٩

دار الصحابة للتراث
بطنطا
للنشر. والتحقيق. والتوزيع
ت: ٣٣١٥٨٧ - ص.ب ٤٧٧
شارع المديرية
فاكس: ٠٤٠/٣٣٨٧٦٩